www.rewity.com

HARLEQUIN

روايات أحلام

دموع على خد الزمن

جين بورتر

marmoria5555

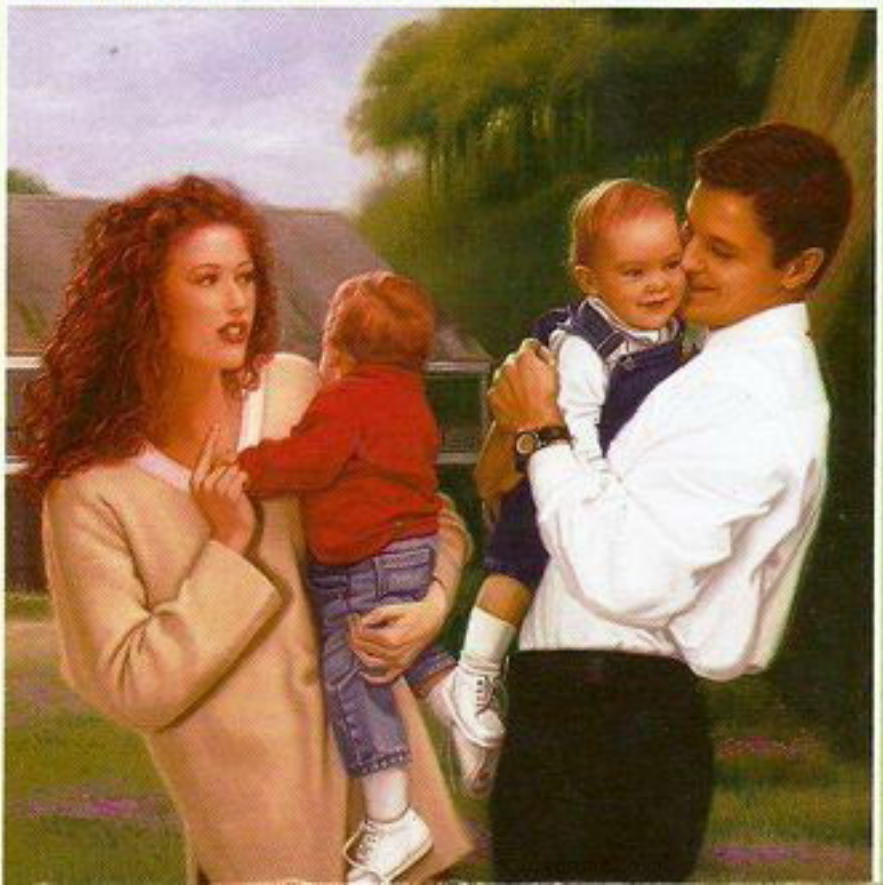

www.rewity.com

دموع على خد الزمن

كان مارك دانجيلو عالمها كله . نجومها وسماءها . جعل عالمها الضيق يتسع ... جعلها تشعر ... وتحب !

واذا به يعود ويرمي كل هذا في وجهها ... فقد جعل عالمها ينهار محطمًا قلبها و أحلامها . من دون أن يشعر بشيء .

... ورحلت بايتون . بعد فشل زواجهما العاصف . مع ابنتيها الصغيرتين .

لم تظن قط أنها ستعود . ولو بعد مليون عام . ومع ذلك عادت بعد عامين إلى إيطاليا ... فقد حان الوقت لتعرف الطفلتان أباهما .

لم تكن بايتون تنوي البقاء فقد صممت على معاملة هذا الرجل المسيطر بفتور . لكن كيف تتجاهل مشاعرها ! كيف تتصرف وكأن وجود امرأة في حياة ماركو لا يهمها!

لا تستطيع ولا ينبغي أن تسمح لمشاعرها بالاستيقاظ . فهذا هو الفردوس و الجحيم معا ...

marmoria5555

تمهيد

- لن أدعها تخرّب حفل الزفاف.

تردد صدى صوت ماركو دانجلو العميق في الصالون المرتفع السقف. كان نادراً ما يرفع صوته بهذا الشكل فنظرت إليه الخياطة التي تجرّب الثوب على العارضة لحظة ثم عادت بعدها إلى عملها.

وضعت الأميرة ماريلينا يدها على ذراعه قائلة: «لن تخرب حفل الزفاف، يا عزيزي... فالحفلة لن تقام قبل أشهر».

- شهرين ونصف.

سيتزوجان بعد أقل من أسبوع من العرض الأول لأزياء الربيع الجديدة والتي لم تجهز حتى الساعة.

كان الوقت يمر بسرعة. وأضافت الأميرة بهدوء: «لا أدري لما عليك أن تقلق منذ الآن. فالمشاكل تحل مع الوقت».

لم يكن ماركو واثقاً إلى هذا الحد. وتوتر فكّه وقطّب حاجبيه الكثيفين الأسودين فوق عينيه الشاردتين اللتين تسمرتا على يدها الموضوعة على كمّه. أخذ يتأمل خاتم الخطبة الثمين الذي وضعه في إصبعها منذ أقل من شهر.

كان قد بحث طويلاً حتى عثر على هذا الخاتم المصنوع في القرن الثامن عشر من زمردة وماسة محاطة بياقوت أزرق. يعود الخاتم إلى أسرة بورجيانو الملكية التي توارثته ثلاثة قرون حتى وصل إلى والد الأميرة ماريلينا أيّ الأمير ستيفانو الذي اضطر لبيعه منذ خمسة

وعشرين عاماً.

تراجعت ثروة أسرة بورجيانو الأرستقراطية فيما تضاعفت ثروة دانجيلو. لكن ماركو لم يكن يشعر حالياً بأنه محظوظ. كان في غاية الضيق والكدر إذ لم يكن راضياً عن مجموعته الجديدة التي رآها خالية من الإبداع والخيال.

شعر والضيق يتملكه أن مجموعته مملة للغاية، ما يعتبر أسوأ من الموت في عالم الأزياء.

لم يشعر ماركو قط أنه بحاجة إلى شخص آخر يخبره إذا كان عمله ناجحاً أم لا. فهو يعلم هذا بنفسه... يشعر به في أعماقه. وهو يشعر الآن بأن مجموعة أزياء الربيع هذه ستخيّب الآمال إذا لم يجد اللمسة الإبداعية في أقرب وقت، إذا لم يستطع أن يضع لمسة سحرية على عمله.

ولكن ما هو ذلك الشيء غير العادي؟

لم يجده بعد، وهو لن يجد الجواب حتماً وزوجته السابقة هنا. وبعد لحظة قال بصوت أجش منخفض: «أنا لا أثق بها. لطالما كانت بايتون أنانية».

- ألم تقل إن زيارتها لقضاء عطلة فقط؟

نظر ماركو في عيني ماريلينا المعبرتين اللتين بلون السكّر المحروق. هذا اللون يبرزه شعرها الأسود اللامع وأهدابها الكثيفة السوداء.

بما إنه رأس أسرة دانجيلو، صاحبة أرقى دور ميلانو لتصميم الأزياء، كان يعمل يومياً مع عارضات الأزياء المذهلات الجمال، كما ألبس أجمل نساء العالم لما يقارب العشرين عاماً. لكن ماريلينا مختلفة عنهن.

سألها وقد خفّ توتر شفتيه: «كيف يمكنك أن تكوني متفهمة إلى

هذا الحد؟».

ومد يده إلى جيبه يخرج علبة سجائره قبل أن يتذكر أنه وعدها بأن يتوقف عن التدخين.

هزت كتفيها النحيفتين بحركة إيطالية بالغ الأنوثة: «لأن بايتون لا تشكّل تهديداً».

ابتسمت وهي تراه يرفع حاجبيه، ولوت شفتيها الحمراوين الممتلئتين: «نحن نعرف بعضنا البعض منذ مدة طويلة يا ماركو، وقد اجتزنا معاً ظروفاً صعبة. إننا نفهم بعضنا بعضاً ونعرف ما نريد. وهذا يختلف عن زواجك الأول... أليس كذلك؟».

فكر في أنه يختلف تماماً فعلاً، وصرّ أسنانه وكاد غضبه ينفجر مرة أخرى. إنه لا يسمي فترة الواحد وعشرين شهراً زواجاً بل مصيبة... لا، بل كابوساً.

قالت ماريلينا بلطف: «لا تغضب بهذا الشكل، يا حبيبي. فهي لن تمكث هنا طويلاً، وسترافقها البنتان. أنا أعلم أنك تود تقوية علاقتك بهما...».

فقاطعها: «كان هذا منذ فترة طويلة. قبل أن تحتجزهما رهينة، قبل أن تستغلهما ضدي. ربما كانتا ابنتيّ ذات يوم، لكنهما لم تعودا كذلك. لقد حرصت بايتون على أن تنشئهما على كراهيتي».

قالت بلطف: «هذا غير صحيح. ما زالتا ابنتيك. إنك تعبدهما وأنا أعرف أنك افتقدتهما إلى حد هائل».

ابتلع ماركو غصة في حلقه. لقد افتقدهما، افتقدهما إلى حد جعله يشعر بالمرض. وقال بعد لحظة طويلة: «إن بايتون تعلم أنني سأرفع دعوى وصاية. وهي تعلم أنها إذا عادت فسيستحيل أن تخرجهما من البلاد مرة أخرى».

مالت ماريلينا برأسها جانباً: «لماذا ستحضرهما إلى هنا إذن؟».
وفكر ماركو في أنه سؤال جيد. سؤال جيد للغاية.

١ - الحياة ليست سهلة

الموت والضرائب، إنهما الحقيقتان الوحيدتان في الحياة.
راحت هذه الكلمات تدور في ذهن بايتون باستمرار.
ودفعت بيد متعبة، خصلة من شعرها الأحمر عن جبينها. كانت قد صعدت إلى الطائرة وشعرها مرفوع بدبابيس. لكن، بعد خمس عشرة ساعة من السفر، تغيّرت التسريحة.
انزلقت حقيبة ملابس سوداء من بين الأمتعة، فانحنت تتفحص البطاقة وهي تحرص على ألا تزعج الطفلة التي تحملها على ذراعها. نظرت إلى ابنتها النائمة والدموع لا تزال على وجهها. لقد فقدت جايا دثارها الصغير أثناء تبديل الطائرة في نيويورك.
لم تكن الرحلة سهلة... ولم يكن الشهر سهلاً. ولم تكن الحياة سهلة!
لوت بايتون شفتيها وهي تكبح مشاعرها. لا يمكنها التفكير الآن، فهذا لا يفيد إلا في جعل الأمور أسوأ.
ألقت على ليڤيا نظرة سريعة: «هل أنت بخير يا ليڤيا؟».
وكبحت ابتسامة لرؤيتها الطفلة ذات الأعوام الثلاثة تجثم على مسند عربة الأمتعة، وإبهامها في فمها وتحت إبطها دثارها الصغير.
أومأت ليڤيا بوقار وقد بدت عيناها القاتمتي الزرقة أشبه بعيني أمها. لقد ورث التوأم شكل وجه أمهما الأشبه بالقلب، وأنفها الصغير المستقيم، لكن لونهما الأسمر الرائع جاء من أبيهما فضلاً عن

الأهداب السوداء الطويلة.

مجرد التفكير في ماركو جعل صدرها ينقبض. لم تصدق أنها عادت، فعندما غادرت ميلانو منذ عامين، كانت مقتنعة بأن الموت وحده يعيدها إليه.

وهذا ما حصل.

وغالبت دموعها فهي لا تريد أن تبكي. لم تعد تبكي كثيراً، لكنها مرهقة، وعندما تتعب تنهمر دموعها بسهولة.

كانت السنة الأخيرة قاسية، لكنها لا تقارن بالشهر الأخير فقد كان جحيماً. أربعة أسابيع من الخوف والقلق ومحاسبة النفس.

وأخيراً، ظهرت الحقيقة. إذا كانت مريضة، فالطفلتان ستحتاجان إلى أبيهما.

تململت جايا بين ذراعيها ثم فتحت عينيها: «أريد دثاري».

بدا صوتها مخنوقاً من كثرة البكاء، فقالت لها أمها: «أعلم أنك تريدينه».

فتلألأت الدموع في عيني الطفلة وقالت: «أريده الآن!».

انفطر قلبها لبكاء ابنتها وشعرت وكأنها أخطأت في حقها. لم تكن الطفلتان تتحركان بدون دثاريهما. فكيف فقدت الأم دثار جايا؟ لم يحدث هذا قط من قبل: «أعلم، أعلم لكننا لا نستطيع الحصول عليه يا جايا...».

- لا لا لا لا...

وملأ العويل قاعة الأمتعة فقبّلت بايتون خد جايا المتوهج وأخذت تهدئها: «سنستعيده حالاً. أعدك بذلك».

لكن جايا لم تهدأ. وعندما سمعت ليڤيا بكاء أختها راحت تنشج هي أيضاً.

وفجأة، توقف عرض الأمتعة. وحدّقت بايتون إلى بعض الحقائب التي ما زالت معروضة، فيما راح موظف المطار يضع ما بقي من حقائب على العربة.

لم تظهر حقيبتها السوداء لكن كيس طفلتيها وصل مع مقعديهما.

هذا يعني أن ما من ملابس داخلية نظيفة لها، أو ثياب نوم أو أحذية مريحة... لا شيء على الإطلاق.

تصريح لمصلحة الضرائب.

ونتيجة مريعة لفحص أنسجتها بسبب داء السرطان.

والآن، ما من ملابس داخلية نظيفة؟ هذا لا يصدّق!

وارتفع صوت جايا بالعويل: «ما ما ما ما...».

واغرورقت عينا ليڤيا بالدموع هي أيضاً وأخذت تبكي قائلة: «أحضري دثار جايا، يا ماما. إنها تريد دثارها».

انحنت الأم وحملت الطفلتين على ذراعيها: «أعرف هذا. سأحاول أن أحضره. هذا وعد».

لكن جايا أخذت تضرب كتف أمها بقبضتها: «الآن. أحضريه الآن. الآن!».

وعادت ليڤيا تقول وشفتها السفلى ترتجف: «إنها تريد دثارها».

نظرت جايا إلى عيني أختها: «دثاري مشتاق إليّ!».

راحت الطفلتان تشهقان معاً فأخذت الأم تهزهما معاً بين ذراعيها وهي تتساءل كيف أنشأتهما حتى الآن، وحدها؟

لم يكن الأمر سهلاً.

وهمست: «أنا أيضاً أفتقد الدثار، سأشتري لك واحداً جديداً. أراهن على أننا سنجد دُثراً جميلة جداً ويمكنك أن تختاري منها ما تحبينه».

www.rewity.com
memoria555

فازداد بكاء جايا: «لا لا لا . . .».

وفجأة، دوىّ صوت عميق: «جيانينا إليترا، ماريا دانجيلو».

هذا النداء الرسمي الجاف أسكت جايا على الفور كما أن جفاءه جعل جسم الأم يرتعش.

عرفت بايتون هذا الصوت فسرت قشعريرة باردة في ظهرها. إنه ماركو. . .

يا إلهي. . . لم تشأ أن تفعل هذا. لم تشأ أن تكون هنا، ولكن لم يكن أمامها خيار. . .

كبحت انفعالها ورفعت بصرها ببطء إلى القامة المهيبة لزوجها السابق. . الرجل الذي لم تره منذ ما يقارب العام.

والتقت عيناه البنيتان بعينيها فانحبست أنفاسها لحظة، وانقبض قلبها غضباً وألماً.

لم تظن قط أنها ستعود، ولو بعد مليون عام. ألم ترم بهذه الكلمات في وجه ماركو حين قالت له: (ما من شيء سوى الموت يجعلني أعود إليك!)؟

دار رأسها لكنها أرغمت نفسها على التنفس ببطء. . .

يمكنها القيام بذلك، لا بل عليها القيام بذلك. . . من أجل الطفلتين. ونظرت إلى الطفلتين فرأت وجه جايا الصغير شاحباً من الصدمة.

اغرورقت عينا ليڤيا الداكنتا الزرقة بدموع علقت بأهدابها السوداء. . وشعرت بايتون بيأس بالغ. إنهما حتى لا تعرفانه. . فكيف يمكنها أن تتركهما معه؟ كيف أمكنها أن تفكر بأنه. . الحلّ؟ كيف يمكن أن يكون الحل؟ لا بد أنها جنّت.

أو ليس لديها خيار آخر.

تباً! الحياة ليست عادلة! لم يحالفها الحظ يوماً.

- مرحباً، ماركو.

حاولت أن تبقي صوتها طبيعياً لكنها فشلت. يبدو أنها أصبحت فاشلة تماماً هذه الأيام.

ردّ تحيتها بصوت بارد للغاية: «مرحباً، يا بايتون».

هذا هو ماركو دانجيلو الذي يواجه الصحافة. هذا هو ماركو الذي تنشر صوره عشرات المرات أسبوعياً.

شعرت بألم في فكها فأدركت أنها تبتسم بشكل متوتر للغاية وكأن حياتها متوقفة على ذلك. . . وكان هذا صحيحاً، بشكل ما. . .

ما يحدث لها غير مهم، فمستقبل الطفلتين هو وحده ما يهمها.

لعلها تكره ماركو دانجيلو، لكنه والد طفلتيها.

أجابته وهي ترغم نفسها على التنفس، بعمق: «لم أتوقع أن أراك هنا».

وشعرت بنفسها مشعثة وبعينيها ذابلتين بعد رحلة استغرقت الليل بطوله.

- تركت رسالة تقول إنك ستصلين إلى ميلانو هذا الصباح.

شعرت بعينيه تضيقان وبشفتيه تتوتران. كان مغتاظاً وهذا ما لم يدهشها. فلطالما أغاظته، وقد كان عديم الصبر معها أثناء زواجهما القصير المؤلم، وبقي غاضباً على الدوام.

- تركت تلك الرسالة لئلا تُدهش حين أتصل بك من الفندق. . . وليس لكي توصلني بسيارتك.

فقال ببساطة: «لكنك بحاجة إلى ذلك».

- ثمة سيارات أجرة.

- لن يقيم أولادي في فندق.

- لقد أجريت حجزاً.

- وقد ألغيته.

ونظر إلى ليڤيا صاحبة العينين الواسعتين التي ترتجف في حضن أمها وقد أبرز شعرها الكث الفاحم السواد زرقة عينيها المذهلة.

توتر فك ماركو وقال: «إنها ترتجف كالفأرة».

فهمت بايتون الانتقاد الضمني في صوته، وسمعت التعنيف الذي كان موجوداً دوماً.

من وجهة نظره، فشلت بايتون كزوجة وامرأة وأم. والمرأة الإيطالية ما كانت لتفعل ما فعلته بايتون.

لكنها لم تكن إيطالية، وهو لم يمنحها قط فرصة للتأقلم.

شعرت بصدرها يحترق وكأنها ابتلعت ناراً: «إنها... مرتبكة..».

وضمتها إليها فخبأت طفلتها الخجول وجهها من استياء أبيها. لقد لقّبتها معلمتها في الحضانة «بالقلب الحنون» وفيما كانت جايا المحاربة كانت ليڤيا هي المحبة.

- وهذه؟

وأشار برأسه إلى جايا التي تشبه الجنية والتي كانت تحملق في أبيها وقد زمّت فمها الصغير لتصبح ملامحها كملامح أبيها بالضبط.

- لقد فقدت جايا دثارها وهي تفتقده كثيراً.

- دثارها؟

- نعم.

- ولا بد من أن تحصل عليه؟

فأجابت جايا بنفسها لأن أباها يتكلم الإنكليزية: «نعم. أنا أفتقد دثاري. أريد أن أستعيد دثاري».

تشابكت نظرات ماركو وجايا. لم تشأ جايا أن تتراجع بسهولة كما لم تشأ أن تشعر بالرهبة الآن. مع أنها في الثالثة من عمرها فقط.

نظر ماركو إليها: «أليستا أكبر من أن تتدثرا؟».

فأجابت جايا بذكاء، ساخطة: «لا. إنهما حبيبانا. الدكتور يقول إن بإمكاننا أن نحصل على حبيب».

نظر ماركو إلى بايتون غير مصدق: «هل علمتهما أنت مثل هذه الأمور؟».

- لا، بل هو طبيب الأطفال. لقد أوضح الدكتور كروسبي للطفلتين أنهما أكبر من أن تضعا مصاصة في فمهما لكنه فهم أن جايا وليڤيا ما زالتا بحاجة إلى ما يلهيهما ويبعث السكينة في نفسيهما.

رفعت بايتون وجهها إليه وتمنت لو بإمكانها أن تقول له إنه كان ليعرف هذه التفاصيل لو كان جزءاً من حياتهما لكنها لن تفعل هذا في حضور الطفلتين.

كانت الطفلتان بحاجة إلى فطور وفترة نوم قصيرة. إنهما بحاجة إلى نظام محدّد في الحياة... إلى وقت ورعاية وكثير من الحب... لكن بايتون لم تقل شيئاً.

وعضت باطن شفتها بقوة كادت تدميها.

مما يدعو إلى السخرية أنها في مؤسسة «أزياء كالڤانتي»، معروفة بدفء عواطفها ومهارتها ورقتها في التعامل مع الناس والمشاكل، فإذا بها، وما إن تواجه ماركو، تفقد أعصابها بهذا الشكل العنيف؟

قال عابساً: «لست شغوفاً بكلمة حبيب ولكن إذا كانت تريد دثارها فسنحصل عليه».

ورفع جايا من بين ذراعي أمها وحملها بين ذراعيه فتصلب

جسدها، وأشاحت بوجهها الصغير. لكنها لم تنطق بكلمة.

كانت جايا خائفة. جايا التي لا تخاف أحداً أو شيئاً، تخاف من أبيها!

شعرت بايتون بقلبها يعتصر. لم يكن مفروضاً أبداً أن تأخذ الأمور هذا المنحى، لم يكن مفروضاً أن تنحدر إلى هذا الدرك. ولولا تقرير المختبر ذاك، لما كانت هنا أيضاً.

أخرج ماركو هاتفه من جيبه: «متى كان الدثار معك آخر مرة؟».

- بين الصعود إلى الطائرة في سان فرانسيسكو وتبديل الطائرة في نيويورك.

أدارت جايا رأسها قليلاً لتنظر إلى ماركو.

فقال: «إنه، إذن، في الطائرة الأولى».

- أو محطة «لاغارديا» للمسافرين.

كان من الصعب تبديل الطائرة في منتصف الليل مع طفلتين نائمتين، هذا إلى حمل الحقائب.

يمكن لبايتون أن تقسم على أنها تفقدت دثاري الطفلتين لكن يبدو أنها أغفلت دثار جايا.

طلب ماركو رقماً وأخذ يتحدث بالإيطالية. ولم تكن بايتون قد تكلمت الإيطالية منذ سنتين، لكنها فهمت كلامه السريع بسهولة.

اتصل بمساعدته طالباً منها أن تقتفي أثر الدثار الضائع. وإذا لم تجده من مكتبها في ميلانو، فعليها أن تستقل آخر رحلة لهذا اليوم وتحاول أن تسترد الدثار شخصياً.

أعاد ماركو الهاتف إلى جيبه، فشعرت بايتون نحوه بالإعجاب رغماً عنها. لم تكن تحب تصرفاته دوماً، لكنها تنجح... كان يحصل عادة على ما يريد.

ما عدا أنه لم يكن يريدها، لكنه مع ذلك، حصل عليها.

وتلاشت ابتسامة بايتون الباهتة: «شكراً».

لقد كرهت تداخل المشاعر في صدرها. لطالما أقنعت نفسها بأنها ستواجه الأمر بهدوء. حدثت نفسها بأنها لن تدع الماضي يؤثر في هذه المصالحة.. لكن الكلام أسهل من الفعل.

أومأ ماركو وسألها: «هل لديك كل شيء؟».

فتذكرت بايتون حقيبتها: «لم تصل حقيبتي».

كبح آهة ونظر إليها بغيظ. لم يكن يمانع في مساعدة الطفلتين، لكنه كان يرفض دوماً أن يساعدها. فالطفلتان من أسرة دانجيلو، لكنها لم تكن ولن تكون أبداً جزءاً منها.

ملأت بايتون استمارة بأوصاف حقيبتها، شاعرة به يتفحصها عن قرب. كان يحمل جايا لكن ليفيا بقيت متشبثة بساق أمها، مبتعدة قدر الإمكان عن هذا الرجل.

هذا الرجل، أبوهما. وأدركت بايتون أن هذه هي البداية: التغيير، الاختيار، الشجاعة.

كانت الرحلة في الليموزين هادئة. فقد نامت الطفلتان، وعجلات السيارة تنساب متمهلة على الطريق. لاحظت بايتون أن ماركو جلس بعيداً عنها. وشكرت الله على هذا.

وعندما ظهر المنزل العالي انقبض قلبها. فقد كانت مفتونة ذات يوم بجمال هذا المنزل بنوافذه العالية ذات الألوان الرائعة. لكنها تشعر الآن بالخوف.

في الداخل، وضعت بايتون الطفلتين في غرفة أطفال مطلية باللون الأصفر، ومليئة بالألعاب المختلفة والدمى. وبعد أن أخذت الطفلتان تلعبان بابتهاج، أدركت أن الوقت حان لمواجهة ماركو.

كان ماركو ينتظرها في الصالون في الطابق الأرضي، وقد خلع سترته ما أبرز صدره العريض. لطالما كان رياضياً ما أسبغ عليه نوعاً من الرهبة.

قال متوتراً، وهو يتناول فنجان قهوته الذي أحضرته الخادمة: «إذن فقد عدت».

كان صوته بارداً خشناً، مثل كل شيء فيه، وقد اخترق أفكارها وشعورها بالإرهاق ما ساعدها على التركيز.

قالت وقد تصلّب جسمها وبدا العجز في لهجتها: «من دون خيار مني».

ضحك بخشونة وصوت خافت: «يصعب عليّ تصديق هذا».

إنها تشعر بالقلق من هذه اللحظة منذ أسابيع، اللحظة التي تواجهه فيها وتسمع صوته، وترى وجهه مرة أخرى وتلحظ النيران العنيفة في عينيه.

وقد حلت هذه اللحظة من دون أن يترنح قلبها أو تنقبض معدتها، كما أن نبضها لم يتسارع ولم تتملكها مشاعر مؤلمة... لا شيء على الإطلاق... والحمد لله.

ما كانت لتأخذ طفلتيها لو شعرت أنها وماركو يمكن أن يكوّنا أسرة حقيقية. ما كانت لتهرب لو اعتقدت أن ثمة فرصة لسعادة حقيقية معه.

والآن، ها هي هنا... إنها تقف على بعد قدم فقط من ماركو دانجيلو، وقد أدركت أنهما لم يحبّا بعضهما البعض قط. لم يجمعهما شيء حقيقي رغم العهود والخاتم والطفلتين. كانت المصادفة فقط هي التي جمعت بينهما.

تنحنحت: «لم أشأ أن أجادلك أمام الطفلتين، لكنني حجزت في

الفندق لأنني أفضل أن أمكث في فندق...».

يا إلهي... لم تشأ أن تتشاجر معه. كانت تترنح والشجار آخر ما تريده الآن: «جئت لكي تستطيع البنتان أن تمضيا بعض الوقت معك...».

- وكيف تريدينهما أن تمضيا وقتاً معي بينما تبقينهما في فندق في المدينة؟

تنفست بايتون بعمق محاولة التمسك بالهدوء: «ستمضيان النهار معك...».

- أنا أعمل أثناء النهار. في الواقع، عليّ العودة إلى مكتبي بعد لحظات.

- هل ستعود الآن؟

- الساعة الحادية عشرة صباحاً. وهو يوم عمل يا بايتون.

- لكن الطفلتين...

- إنهما نائمتان حالياً، كما ينبغي أن تكونا. إنهما مرهقتان وبحاجة إلى راحة كما يبدو.

لم تقل بايتون شيئاً، فحرّك كتفيه بفروغ صبر: «أنت من أصرّ على المجيء. لم تسأليني رأيي، ولم تعرفي برنامج أعمالي، فلا تلوميني إذا كنت مشغولاً».

غرزت أظافرها في راحتيها: «أعلم أن قدومي جاء من دون إشعار مسبق، وأنا آسفة لذلك لكنني أملت أن تتمكن من أخذ عطلة لكي تستطيع التعرّف إلى الطفلتين بشكل أفضل».

- سأتزوج بعد شهرين ثم سأرحل في شهر عسل مدة ثلاثة أسابيع. لهذا، من المستحيل أن آخذ أي عطلة الآن. لكن هذا لا يعني أنني لن أمضي مع الطفلتين أي وقت يسنح لي. سأحرص على أن أمضي وقتاً معهما.

كما حرص على أن يكثر من زيارتهما في كاليفورنيا!

شعرت بالغضب يتملكها. اعتاد أن يقول إنها كانت أنانية مع الطفلتين بحيث عبّأتهما ضده، لكن هذا غير صحيح، فهو لم يحاول قط أن يتعرف إليهما بشكل حقيقي. خلال سنتين لم يزرهما سوى اثنتي عشرة مرة، فأي نوع من العلاقات هذه؟ قال: «ابتناك هنا لأول مرة منذ حوالى سنتين...».

- وذنب من هذا؟

أغمضت عينيها. لم تصدق أنهما يتجادلان فهذا كل ما قاما به أثناء العام الأخير من حياتهما معاً، حتى أصبح الشجار لا يُحتمل.

- سنراك عصر هذا اليوم، إذن.

لم تكن أفكار ماركو مركّزة على العمل عندما وصل إلى مركز عمله في شارع «بورغو سبيسو». كان يفكر في الطفلتين، وقرر ألا ينسى متابعة مسألة دثار جايا المفقود. من الضروري العثور على الدثار بسرعة. يكفي صعوبة الرحلة بالنسبة إلى الطفلة فكيف إذا تبعها فقدان أغراض تحبها؟

وعند وصوله إلى المكتب، استقبله بعض الموظفين القدماء، وكل واحد منهم لديه مشكلة ملحّة، فراحوا يتحدثون في وقت واحد. مصمم الأزياء الرجالية، مدير الابداع، نائب المدير المسؤول عن النسيج والأزياء العملية.

احتشد الكل عند الباب، ليعلو صوت كل واحد منهم فوق صوت الآخر.

أغلق ماركو الباب، وأشار إليهم بالجلوس على الأريكة الأنيقة بجانب الجدار، وهو يقول بجفاء: «أفهم من هذا أن ثمة مشكلة أو اثنتين...».

وأدار جاكوبو عينيه. كان نجاح مجموعة أزياء الرجال في «مؤسسة دانجيلو» من بنات أفكاره. كانت المؤسسة قد صممت الأزياء للنساء بنجاح

أثناء حياة والد ماركو. ولكن منذ استلم ماركو العمل منذ عشرة أعوام، دخل أسواقاً جديدة وكان جاكوبو أول مصمم جديد ضمه ماركو إليه.

تابع جاكوبو بمرارة: «أول مشكلة لدينا هي أن مصنع النسيج أقفل أبوابه في وجهنا هذا الصباح. ليس لديهم شيء لأجلنا، ولم ينجزوا لنا شيئاً مما كنا طلبناه. إننا لن نحصل على أي نسيج جديد لأجل العرض».

وأضاف المدير المبدع فابريزيو وهو يتهالك على الأريكة السوداء: «لم نتعاقد مع غيرهم هذا العام. كنا قررنا أن علينا، هذا العام، أن نقلل من حجمنا، ونتعامل مع مصنع واحد، فجعلنا من أنفسنا مجموعة من الحمقى».

رأى ماركو شيئاً من الفظاظة في هذا الوصف، لكنه يبدو مناسباً.

إغلاق أبواب مصنع النسيج سيؤثر في مجموعة الأزياء النسائية أكثر منه في الأزياء الرجالية.

قال: «لا يمكنهم إغلاق أبوابهم قبل أن يتمموا الاتفاقية التي بيننا. سيعرّضون أنفسهم لدعوى قضائية».

لم يتكلم أحد فنظر ماركو إلى ماريا، مديرة قسم العطور، ولم تكن قد تكلمت بعد: «ماذا؟ أرى أن ثمة ما يزعجهم، وأراهن على أنه لا يتعلق بمصنع النسيج».

رفعت ماريا حاجبيها الأسودين: «هذا صحيح. إنها الحملة الإعلانية الجديدة. لقد أطلقوا أول إعلان مطبوع أمس».

- ثم؟؟

- ليس الإعلان الذي اتفقنا عليه. ليست الحملة الإعلانية الجديدة التي خططنا لها.

- ولكن هل هي جيدة؟

كانوا قد خططوا لنشر الاعلان في أربع وعشرين مجلة أزياء حول العالم.

- كلا.

ثمة أيام يتمنى فيها ماركو لو لم ينهض من سريره، وهذا اليوم هو واحد منها.

- هل الأمر سيء إلى هذا الحد؟
- ستكرهه.
- لا بأس. صليني بوكالة الإعلانات. جاكوبو خذ لي موعداً مع أصدقائنا في مصنع النسيج، وأخبرهم أننا قادمون مع مستشارنا القانوني. يبدو أننا سنكون مشغولين هذا النهار.

نعم، سيكون نهاراً حافلاً. أخذ يفكر في ذلك وهو يشير إليهم بالخروج قبل أن يرفع سماعة الهاتف. لكنه لن يكون مشغولاً بحيث ينسى توأميه. مال على المكتب وطلب رقم منظمة رحلاته: «هنا ماركو. هل نجحت في العثور على دثار إبنتي؟».

- كلا، لسوء الحظ.

ولم يكن هذا هو الجواب الذي يريد أن يسمعه وأغاظته منظمة رحلاته بالحل الذي عرضته عليه.

- أعلم أن بإمكاني أن أشتري لها دثاراً جديداً، لكن جايا لا تحب أن تحصل على دثار جديد فهي تحب دثارها القديم. احرصي على أن تذهبي في الرحلة الأخيرة هذه الليلة. أنا أريد دثارها المفضّل.

٢ - عتاب ولوم

عاد إلى منزله متأخراً أكثر مما كان ينوي بكثير. وعند وصوله بدا المنزل هادئاً مظلماً ما عدا بعض الأضواء في الطابق الأرضي.

تبع ماركو الضوء إلى الصالون الكبير حيث سمع بايتون تتحدث بصوت هامس. كان الباب موارباً قليلاً فتمكن من أن يرى بايتون متكورة على مقعد وهي تتكلم في هاتفها الخلوي. كانت ترتدي سروالاً أخضر فضفاضاً وكنزة سوداء ذات قبة عالية ومعطفاً خفيفاً أخضر. وفكر في أنها تعرف كيف تستعمل الألوان. ذلك اللون الأخضر الذي ترتديه.. أبرز لون شعرها الناري بياض بشرتها.

لطالما كانت ذوّاقة في التصميم والألوان. ولعلها تتحدث الآن إلى فريق عملها في سان فرانسيسكو. وشعر فجأة بشرارة غريبة من العاطفة، اختلطت بالغضب.

كان لديهما، هو وبايتون، مشاكلهما، لكنه يحترم فيها موهبتها. كانت طبيعية حين يتعلق الأمر بتصميم الأزياء. كانت تتصور نوع القماش بين يديها، نسيجه، لونه، تفصيله... وبخطوط من قلمها تأتي بأفكار نيّرة.

كان معجباً بعملها، وأرادها ضمن فريقه. لكن عندما انقطعت علاقتهما عادت إلى أميركا وأخذت تعمل مع مصمم إيطالي هناك.

بدأت أصابع بايتون تتشنج لطول إمساكها بهاتفها الخلوي. لقد اتصلت بعملها لتسأل عن أحوالهم، لكن مساعدتها لم تدعها تتكلم

www.rewity.com
marmoria5555

وبدا وكأنها ستستمر في الحديث حتى الحادية عشرة صباحاً: «متى ستعودين؟ أقسم أنك الوحيدة التي تعلم ما يجري».

- حسناً، على شخص آخر أن يفعل ذلك.

أجابت بايتون بمرح وهي تفكر في أن غيابها ليومين فقط أصبح مشكلة بالنسبة إلى دار «كالڤانتي للتصميم»، فماذا سيحدث إذا أعلنت أنها ستأخذ إجازة؟

كانت قد أقفلت الهاتف لتوّها عندما سمعت وقع أقدام على الأرض الخشبية، فالتفتت وإذا بماركو يقف على عتبة باب الصالون، فسألته: «متى وصلت إلى البيت؟».

فأجاب وهو يشير إلى الهاتف: «منذ دقائق. هل سمعت شيئاً لا ينبغي أن أسمعه؟».

- لا.

سار نحوها وهو يخلع معطفه: «سمعت أنك تصممين لكالڤانتي باسمك الآن».

فقالت وهي تراقب اقترابه منها بحذر: «نعم».

كان قد تميّز غيظاً عندما بدأت بالعمل مع كالڤانتي إثر عودتها إلى سان فرانسيسكو منذ عامين. وكالڤانتي هي شركة صغيرة لتصميم الأزياء، إيطالية - أميركية، أخرجت أزياء مذهلة مقارنة مع حداثتها وصغر حجمها. كانت البهجة قد تملكتها لاحتمال أن تحصل على بطاقتها الخاصة، ومع ذلك قال ماركو إنهم استخدموها للاستفادة فقط من اسم دانجيلو الذي تحمله.

سألها: «لقد تخليت عن تصميم الملابس الرجالية؟».

فشعرت بتوتر في فكها. لم يحدث قط أن فكر بها كمصممة أزياء. وكانت، في بداية زواجهما، قد أرته أعمالها بخجل، فلم يهتم بها.

في الواقع كان أكثر فظاظة بكثير من ذلك. أجابت: «ما زلت أعمل مع غيري في تصميم ملابس الرجال والملابس الرياضية، لكنني، في المستقبل، سأكتفي بما هو مسجل على بطاقتي».

- كنت ناجحة إذن.

- نعم، وبشكل مدهش.

- يبدو أن احتفاظك باسم دانجيلو نفعك.

احمر وجهها وبقيت لحظة لا تستطيع الجواب، مبدية احتجاجاً صامتاً. لن يصدّق أنها احتفظت باسمه لمصلحة الطفلتين. فكل ما سعت إليه بايتون هو أن تجعل حياة جايا وليڤيا بسيطة من دون تعقيد.

- ستقابلين الأميرة ماريلينا الليلة. ستصل خلال نصف ساعة وأتوقع منك أن تعامليها بلطف واحترام.

شعرت وكأنه صفعها فأخذت نفساً سريعاً وقالت: «طبعاً».

- أطلب أن تتصرفي بشكل رسمي وهادىء.

فالتهبت وجنتاها: «لقد فهمت يا ماركو. إننا نتحدث بالإنكليزية».

- نعم، لكنك معروفة بانتقاد ما تسمعينه، لأنك تسمعين فقط ما تريدين سماعه، وأنا أخبرك الآن بأنك لا تستطيعين ولن تستطيعي التدخّل بيني وبينها.

- هذا حسن لأن ليس لدي رغبة في التدخّل بينك وبين الأميرة بل على العكس، أريد أن أطمئن إلى ثبات علاقتكما...

- لماذا؟

كان في دقته وهدوئه، أشبه بجرّاح يقوم بعملية. وجاهدت في اختيار الكلمات المناسبة: «إذا حدث لي أي خطب، فستأتي

الطفلتان. . . ».

وسكتت لحظة لم تر فيها سوى فراغ هائل: «ستلجآن إليك».

- لكن لطالما كنت مصممة على أن تذهبا إلى أمك. . .

وسكت فجأة مدركاً خطأه فأمها ماتت السنة الماضية. وكانت بايتون وأمها متحابتين للغاية.

- آسف، فقد نسيت.

أومأت بألم: «شكراً».

تباً لها كم تبدو صادقة صريحة بشعرها الطويل ذي الخصلات البنية المحمّرة الجعدة التي تسبغ جمالاً على وجنتيها العاليتين وتلطّف من حزم ذقنها. . لكنه كان يعرفها، يعرف المكر في قلبها. فهي ليست ملاكاً. كانت تهدف إلى شيء ما عندما جاءت إلى ميلانو منذ أربعة أعوام. أرادت أن تعمل في دار شهيرة للأزياء، وأن تصطاد رجلاً ممتازاً، وقد حصلت على الإثنين.

ومع ذلك. . . مع ذلك تبدو متعبة للغاية وعاجزة، وهذا ما أزعجه. لقد قامت بتربية الطفلتين بمفردها مدة سنتين، والله يعلم أن الأمر ليس سهلاً.

وأضافت بايتون بعد لحظة: «لم أحضر الطفلتين للتسبب في خلاف بينكما وإنما فكرت في أن من المناسب أن تتعرفا إلى الأميرة قبل العرس. رأيت أن هذا سيساعدهما على التكيّف معها».

نظر إليها طويلاً بحدة. أتراها تقول الحقيقة؟ وهل بإمكانه أن يثق بها؟

سألها يريد أن يغير الموضوع إذ لم يعرف كيف يتصرف. إن رؤيته لبايتون مرة أخرى لم تكن سهلة: «هل نامت الطفلتان منذ وقت طويل؟ أردت أن أبكّر بالمجيء ولكن كان لديّ اجتماع جاءت نتيجته

سيئة».

- لقد نامتا منذ ساعتين. إنهما مرهقتان من السفر وتغيّر التوقيت.

رأت بايتون خطوطاً جديدة حول عينيه وتوتراً عند فمه. لم تكن هذه الخطوط موجودة قبل سنتين، ويبدو أنه يشعر بضغط وتوتر كبيرين. وتساءلت عن سبب ذلك.

قالت: «كنت أفكر في أننا، أنت والأميرة ماريلينا وأنا، يمكن أن نتناول العشاء معاً، الليلة».

فأجفل: «الليلة؟».

- نعم، نحن الثلاثة، لكن ربما لديكما خطة مسبقة. . .

- نعم، لدينا.

سمعت العتاب في صوته. كان يكره أن تُطلب منه الأمور في آخر لحظة. وتابع يقول: «هذا ليس مشكلة. يمكننا أن نتعشى معاً في وقت آخر أو نتناول الغداء إذا كان هذا أفضل».

انفتح باب الصالون فجأة ووقفت الأميرة ماريلينا في العتبة وقد بدا قوامها الطويل النحيف أنيقاً في بذلة كحلية داكنة، أبرزت خصرها النحيل وساقيها الطويلتين. سألت بانكليزية من دون عيب ككل ما فيها: «هل قاطعتكما؟».

انتصب ماركو واقفاً بابتسامة دافئة لطفت ملامحه: «أبداً، يا حبيبتي. أدخلي. كنا نتحدث عنك».

فالتوت شفتاها: «لا عجب في أن أذنيّ كانتا تحترقان. أخبرني، هل كان الحديث حسناً؟».

اجتازت الصالون الفسيح وكعبا حذائها يقرعان الأرض الرخامية. كانت عيناها على ماركو فقط وعيناه عليها، وأجابها

بصوت منخفض أجش عندما وصلت إلى جانبه: «الحديث عنك حسن دوماً».

وطوّق خصرها بذراعه هامساً: «هل كل شيء على ما يرام؟».

بدا واضحاً أن السؤال موجّه إلى ماريلينا، لكنه رفع صوته بما يكفي لتسمعه بايتون.

أومأت ماريلينا بشبه ابتسامة: «نعم يا حبيبي. شكراً».

ثم التفت إلى بايتون التي وقفت عند دخولها الغرفة: «لا بد أنك بايتون».

شعرت بايتون بطعنة من الحسد، ما كان ينبغي لها أن تغار وما من سبب يدفعها إلى الغيرة، فهي لم تشأ العيش مع ماركو... لقد حظيت بفرصتها منذ عامين... ومع ذلك تملكها شعور غريب وهي ترى ماركو بهذا الدفء مع الأميرة.

لم يكن هذا دفئاً فقط بل حميمية. ارتياح لم تشعر به بايتون قط.

لطالما شعرت بالتوتر، لكن هذا من الماضي. لم يعد ماركو زوجها الآن، وهي ليست جزءاً من مستقبله.

أرغمت نفسها على التصرف بشكل حسن، فمدّت يدها للأميرة: «تسرني معرفتك يا أميرة ماريلينا، وتهانيّ أيضاً».

- شكراً يا بايتون. إننا متلهفان كثيراً لحفل الزفاف. سنقيم الاحتفال في كاتدرائية «ديومو». وحفل الإستقبال سيقام هنا.

- أنا واثقة من أنه سيكون عرساً رائعاً.

بدأت الكلمات تلتصق بحلق بايتون، وصمت الجميع.

ازداد الصمت ثقلاً، وأدركت بايتون أن ماركو وماريلينا يتبادلان نظرات متسائلة.

انتصب ماركو في وقفته: «كانت بايتون تقترح أن نتناول العشاء

معاً، في وقت ما...».

فقالت ماريلينا موافقة بظرف، وبصوت جميل: «فكرة جميلة. علينا حقاً أن نعرف بعضنا».

رفع ماركو حاجبيه الكثيفين: «على التعارف أن ينتظر، لسوء الحظ. بايتون، هل تسمحين لنا بالخروج، فقد سبق وحجزنا للعشاء».

عندما ساعد ماركو ماريلينا على الصعود إلى سيارته الفيراري التي اشتراها بعد شهر من عودة بايتون إلى أميركا، وجد أفكاره تعود إلى زوجته السابقة.

بدت مختلفة، مختلفة تماماً. لقد حدث شيء ما. تغيّر شيء ما. هل لديها مشكلة مالية؟ مشكلة مع رجل؟ هل الأمر يتعلّق بالطفلتين؟

وسرعان ما أدرك أنه ارتكب غلطة أخرى. ما كان لها أن تعود إلى هنا. ما كان ينبغي له أن يسمح لها بدخول بيته لأنها مزعجة. لطالما كانت مزعجة ومنذ البداية.

عندما تحرك بالسيارة، مدت ماريلينا يدها تريحها على كتفه: «لا تقلق إلى هذا الحد. كل شيء سيكون على ما يرام، يا ماركو. كل شيء سيكون في أحسن حال».

تشابكت نظراتهما، فرفع يدها يقبلها. وفيما هو يقبل ظاهر يدها، عادت أفكاره إلى بايتون مرة أخرى. كان لبايتون طريقة تشغل بها باله وتزعزع كيانه، وهذا ما تفعله الآن بشكل لعين.

* * *

حاولت بايتون صرف ذهنها عن ماركو، أخذت تفرغ حقيبتي ظهر الطفلتين وتفرز الألعاب من الكتب من قطع الملابس المتشابكة.

من الغريب أن تعود إلى هذا البيت.

أخذت تفكر في ذلك وهي تطوي الملابس الصغيرة.

رغم أن والد ماركو توفي قبل تعرّفها إلى ماركو بعامين. إلا أنّ الڤيلا لا تزال تجسد شخصية الراحل الكبير فرانكو دانجيلو ما جعل رحيل ماركو وتركه لها وللطفلتين في بيت الأسرة، مؤلماً للغاية. في الأشهر الأولى بقيت وحدها في المنزل.

حاولت أن تتظاهر بأنها وماركو متفقان تماماً وذلك من أجل الطفلتين، لكن النظرية ليست كالحقيقة.

وفي النهاية، لم تعد تستطيع التظاهر. بعد انفصالهما المتكرر، لم تعد تستطيع البقاء معه في الغرفة نفسها، وأن تتصرف بعفوية بشكل طبيعي. لم تعد تستطيع أن تحدثه بشكل مهذب بينما هي جالسة في ناحية من الصالون وهو في الناحية الأخرى. لم تعد تستطيع احتماله وهو يحدثها، أو يسير، أو يعمل... لم تعد تحتمل أن يلمس امرأة أخرى حتى ولو كان يساعدها على ارتداء معطفها.

كان يبدو مرتاحاً مع الكل، سهل العشرة مع الجميع إلا معها. سمعت منه حينذاك ما جرح كرامتها لكنها شفيت. إلا أنّ الألم في قلبها لا يزل حاضراً، لا بل أصبح أسوأ. ورؤيتها ماركو وقربها منه عززا شعورها بالخسارة.

لقد جرحها ذلك، جرح إحساسها حتى شعرت بأنها تتمزق. مجرد نظرة إليه كانت كافية لأن تحطم أعصابها من جديد... أو أن تمزّق قلبها.

أشهر من التحدث بشكل رسمي والتوتر الدائم، كان لها تأثيرها. أدركت بايتون أن الكل يراقبها، بعضهم من باب الفضول والشفقة، والبعض الآخر من باب الحيرة واللوم. حاولت طويلاً أن تبذل

جهدها لتكون طبيعية من أجل الطفلتين، وأن تظهر أن كل شيء على ما يرام، لكنها لم تكن على ما يرام.

ولعل هذا ما أدركه الجميع.

حاولت أن تتصرف بشكل طبيعي، لكن هذا لم يكن سوى تمثيل.

وأخيراً، وبعد تسعة أشهر من اتخاذه جناحاً منفصلاً عنها، رحلت تاركة الڤيلا وميلانو وماركو.

- إذن فقد استقريت هنا؟

أجفلت عند سماع صوت ماركو. لم تكن قد سمعته يقترب رغم أنها تركت الباب مفتوحاً في حال استيقظت الطفلتان.

- لم تتحرك الطفلتان وسآوي أنا إلى الفراش حالاً. لقد عدت مبكراً.

وجلست على حافة السرير قرب كومة الملابس.

- لدي اجتماع في السابعة صباحاً.

لن يملك إذن ما يكفي من الوقت ليرى الطفلتين عند الصباح. وعضت شفتها بخيبة أمل.

- هذه الاجتماعات مخطط لها منذ أسابيع، يا بايتون.

- لم أقل شيئاً.

- لا، لكنني أرى ذلك في عينيك. إنت تفكرين في أنه ينبغي أن أكون هنا. تظنين أن عليّ أن أترك كل ما عندي لأنك جئت.

شعرت بغضبه الذي بدا واضحاً ملموساً ومتوعداً. وتصلب جسدها: «لم أتوقع منك أن تترك كل شيء».

- هذا حسن، لأنني لا أستطيع ذلك. في أيلول سنحتفل بالعيد الخمسين لدار دانجيلو، وهو عمل ضخم ليس بالنسبة لي فقط بل إلى ميلانو... إلى صناعة تصميم الأزياء نفسها.

كانت على علم بالإحتفال بالعيد الخمسين فهو جزء من أحاديث عالم الأزياء، وهي مفتونة بفرانكو دانجيلو مثل غيرها. كان نابغة، وقد صمم ملابس أكثر نساء العالم شهرة وجمالاً.

وتابع يقول: «سيصل فريق من إنكلترا هذا الأسبوع ليخرجوا فيلماً وثائقياً عن أبي. وقد وضعت برنامجاً للصباح بطوله كما سيجرون معي مقابلة بعد الظهر».

- هل هناك ما يمكنني القيام به؟

فقال بفظاظة: «لم تعودي تعملين في «دار دانجيلو» كما أن الطفلتين بحاجة إليك هنا».

أجفلت بايتون وأشاحت بوجهها. ما الذي جعلها تقدّم خدماتها؟ لم يفهم قط أنها تريد أن تساهم بأفكارها. لم يدرك أبداً أن المساهمة بذلك تسرّها لغاية.

وتنهد: «كنت خشناً وأنا آسف فأنا متعب لأن هذا الشهر كان شاقاً».

- أتفهمك. لقد أمضيت ساعات منكبة على دراسة أحوالي المالية، حريصة على أن أقدم بياناً بكل نفقاتي لمصلحة الضرائب.

انبسطت أساريره حتى أن التعاطف بدا عليه: «لكن هذا أصبح خلفك الآن؟».

- نعم، لحسن الحظ.

نظرت إليه يبتسم لها، فاجتاحتها ذكريات مرة. كم كانت تحب ماركو!

كان عالمها كله، نجومها وسماءها. جعل عالمها الضيق يتّسع... جعلها تشعر... تحب.

وإذا به يعود ويرمي كل هذا في وجهها... الحب...

الرغبة... الحاجة... جعل عالمها ينهار محطماً قلبها وأحلامها، من دون أن يشعر بشيء. كان ألماً لا مثيل له، وأسوأ شعور بالخسارة. بقيت تبكي شهوراً... بكت وهي تستحم، وعلى الوسادة وفي السيارة في طريقها إلى العمل.

كيف يمكنها أن تنسى شخصاً ما؟ أن تكفّ عن الرغبة فيه؟ والحاجة إليه؟

الطريقة الوحيدة التي جعلتها تنسى خسارتها هي بقتل هذا الحب. ووجدت نفسها مرغمة على أن تخنق كل تلك الحاجة والرغبة والمشاعر المحمومة نحوه.

فلا حنان، ولا رغبة ولا مشاعر محمومة، لا شيء سوى الغضب. لقد آلمها إلى حد أنها صممت على ألا تصفح عنه أبداً، أن تنساه، ولا تتصل به مرة أخرى.

لكنها لم تحقق ذلك، فنتيجة المختبر أرغمت بايتون على أن تواجه ليس موتها وحسب بل كبرياءها أيضاً.

وكررت بلطف وهي تبتلع ريقها بصعوبة: «نعم، لحسن الحظ. وأرجو ألا أضطر لمواجهة جابي الضرائب مرة أخرى، وذلك لفترة طويلة».

فقال فجأة: «كدت أنسى. ثمة شخص على الطائرة إلى نيويورك لاقتفاء أثر دثار جايا».

- شكراً. سيكون عثورك عليه معجزة، لكنها معجزة مرغوب فيها.

فتوترت شفتاه: «أنت لا تظنينني أهتم بالتوأمتين يا بايتون، لكنك مخطئة، فأنا أحبهما للغاية، ولطالما كان أمرهما يهمني».

- ومع ذلك لم تكن تزورهما كثيراً.

- أنت من انتقل بهما إلى أميركا.

لا يمكن أن يختصر مشاكلهما كلها بمجرد انتقالها. فقالت: «لم أستطع أن أفعل سوى ذلك».

- هذا غير صحيح فقد طلبت منك البقاء هنا، كنت أعلم أنّ من الصعب أن أرى الطفلتين حين تكونان في آخر العالم. وكنت على حق.

- لديك أعمال في الولايات المتحدة لكنك لم تحاول أن ترانا كثيراً.

وغرزت أظافرها في راحتيها وبدا التوتر على شفتيها وتابعت: «أنا أعلم أنك جئت إلى منطقة «باي إيريا» مرات عدة ولم تأت لزيارتنا».

فقال بالتوتر نفسه: «لقد حاولت ذلك. ولكن كلما اتصلت بك، وجدت عذراً. إما أنك متجهة إلى خارج المدينة، وإما أن إحدى الطفلتين مريضة».

- المرة الوحيدة التي كنت متجهة فيها إلى خارج المدينة، كنت ذاهبة إلى جنازة. كما أن الأطفال يمرضون.

كانت تلك جنازة أمها التي ماتت بعد أن صارعت مرض السرطان خمس سنوات. حينذاك، كاد الحزن يهلك بايتون.

- كنت أرسل هدايا.

كان يدافع عن نفسه لكنه يعلم أنه دفاع أعرج. كان يفضل الابتعاد ليس لأنه يريد ذلك، بل لأن زيارته لبايتون والطفلتين كانت تؤلمه أكثر مما تسرّه. بعد كل زيارة كان يشعر وكأنه في جهنم. كان يشعر بالفشل.

- اللعبة ليست كالأب تماماً.

صرخ ثائراً لأنها على حق ولأنه فقد السيطرة على نفسه: «ألا تعلمين أنني أعرف هذا؟».

تباً! إنه يكره قدرتها على أن تفعل به ذلك، وعلى أنه تجعله يشعر بأنه معتوه: «ألا تعتقدين أنني أواجه يومياً شعوري بأن ابنتيّ تنشآن في آخر الدنيا وأنهما تعتبرانني غريباً؟».

تقدمت منه خطوة: «أنت على حق. إنهما تعتبرانك غريباً، ولِمَ لا؟ إنك حتى لم تفكر في أن تكون جزءاً من حياتهما، كما أن عيدَ ميلادهما كان الشهر الماضي، وقد أرسلت إليك دعوة، فلماذا لم تحضر؟».

شعر بوجهه يشحب: «لم أستطع الحضور».

- اتصل بي. حدثني على الإنترنت. أخبرني بهذا كيلا يخيب أمل الطفلتين.

- لا أظن أنهما شعرتا بغيابي.

احترق صدرها وجفّت عيناها فأدركت أنها غاضبة... ليس منه فقط بل من القدر والحياة وكل ما حولها.

- أتعلم أنهما أمضتا حفلتهما وهما تراقبان الباب؟ أتعلم أنهما توسلتا إليّ لئلا أقطع الكعكة لأنك قد تصل متأخراً؟

- أسكتي يا بايتون.

- بل أسكت أنت، وكفّ عن معاملة الطفلتين بهذا الشكل السيء لأنك غاضب مني. إنهما لم تطلّقاك. إنهما غير ملومتين.

فهبطت كتفاه: «أنا لا ألومهما».

- هذا ما يبدو.

- لماذا جئت إلى هنا إذن؟

فقالت وهي تغالب دموعها: «ماتت أمي منذ حوالى العام. فإذا

www.rewity.com
memoria5555

حدث لي أي شيء، ستأتي الطفلتان إليك. فات الأوان على إنقاذ زواجنا، لكنه لم يفت على الحرص على أن يكون للطفلتين علاقة بك مبنيّة على المحبّة».

٣ - أميرة متهوّرة

استيقظت الطفلتان باكراً فزحفتا إلى سرير أمهما. وعندما ألقت الثلاث الأغطية كي ينزلن لتناول الفطور، كان ماركو قد خرج. وباستثناء قول جايا الوقح إنّ الذئب الكبير الشرير ذهب إلى العمل، بدت الطفلتان غافلتين عن حقيقة أنهما مقيمتان في منزل والدهما.

قبل الظهر، خرجت بايتون مع الطفلتين إلى الحديقة لتنشّق الهواء النقي، وأخذتا تركضان متجهتين نحو الحديقة التي اكتشفتاها أمس: «تعالي، ماما أسرعي!».

في الحديقة المسوّرة، أخذتا تتسابقان وهما تصرخان ضاحكتين. ظللت بايتون عينيها بكفها وأخذت تنظر إلى جايا وهي تطارد ليڤيا في أنحاء الحديقة. لعل جايا أكثر ثقة بنفسها من ليڤيا، لكن هذه الأخيرة سريعة الحركة. وكبحت الأم ابتسامتها عندما نجحت ليڤيا في منع جايا من الإمساك بها.

وصرخت جايا بصوت عال وقد خاب أملها: «هذا ليس عدلاً».

لكن ليڤيا هربت وهي ترقص محاولة ألا تضحك.

قالت ماريلينا وهي تظهر عند بوابة الحديقة الحديدية الصغيرة: «إنهما تستمتعان بوقتهما، أليس كذلك؟».

التفتت بايتون ورسمت على شفتيها ابتسامة للأميرة: «إنهما تحبان هذه الحديقة الصغيرة. إنها أشبه برسم في قصة».

نظرت الأميرة إلى السور، وقالت: «ذات يوم، كانت هذه حديقة القصر للأعشاب العطرة. هل تحسنين البستنة؟».

- لا. كنا، أنا وأمي، نسكن في شقة ولم يكن لدينا حديقة.

لم تعلّق الأميرة بينما أضافت بايتون بسرعة: «لكنني أحسن الخياطة، ولهذا السبب وقعت في غرام تصميم الأزياء. كنا، أنا وأمي، نخيط ملابسنا كلها».

- أراهن على أنكما كنتما ماهرتين للغاية، وأنا واثقة من أن ملابسكما لم تكن تبدو مصنوعة يدوياً.

ألقت بايتون نظرة سريعة على الأميرة، متسائلة إن كانت هذه تسخر من ماضيها الفقير، لكن ماريلينا بدت بريئة. لم يكن لدى بايتون ما تخجل منه، فأمها كانت خياطة موهوبة، وقد علّمت بايتون في سن مبكرة. وعندما أصبحت بايتون في الرابعة عشرة، انكبت على مجلات الأزياء، تنسخ منها الأزياء الأوروبية.

لطالما حلمت أمها بأن تتعلم ابنتها عند كبار مصممي الأزياء في أوروبا. وكانت بايتون تعلم أنهما عاجزتان عن القيام بالرحلات إلى خارج البلاد لكنها انجرفت في حلم أمها. تحدثتا عن العيش في ميلانو ودخول بايتون إحدى دور الأزياء الشهيرة في إيطاليا مثل «فالنتينو برادا» أو «دانجيلو».

من كان يظن أن حلماً كهذا سيتحقق؟

قالت ماريلينا وهي تنظر إلى الطفلتين تلعبان: «إنهما طفلتان سعيدتان».

- إنهما تعشقان أشعة الشمس.

وفجأة، تسلقت جايا السور الحجري فصفقت بايتون بيديها: «جايا! لا! هذا خطير. إنزلي حالاً».

فضحكت ماريلينا: «كيف تسلّقت إلى هذا العلوّ بهذه السرعة؟».

- يمكن لجايا أن تتسلق أي شيء. لا يمكنني أن أغفل عن الطفلتين لحظة واحدة.

- إنهما جميلتان للغاية. لقد أخبرت ماركو برأيي هذا.

- إنهما تشبهان ماركو.

فضحكت ماريلينا بصوت أبح: «لا أدري، فهما تشبهانك كثيراً. أعينهما هي عيناك وكذلك ملامح وجهيهما الجميلين».

أخذت تنظر إليهما وهما منحنيتان تراقبان فراشة صفراء على صخرة: «يمكنهما أن تعملا في عرض الأزياء بسهولة. هل تحدثت إلى أيّ وكالة؟ أنا واثقة من أن ماركو سيساعدهما».

مجرد سماعها الأميرة تذكر اسم ماركو بهذه العفوية، جعلها تشعر بوخزة ألم. أخذت نفساً عميقاً وشبكت ذراعيها على صدرها: «لا أظن أنّ الطفلتين جاهزتان لعرض الأزياء. أظنهما بحاجة فقط إلى أن تكونا طفلتين صغيرتين».

- الأم تعلم ما هو الأفضل. أنظري، ها هو ذا ماركو. لقد جاء إلى البيت لتتناول الغداء معاً.

حملت الخادمتان طاولة خشبية كبيرة إلى الحديقة، وفرشتا عليها غطاءً من الكتان ثم جهزتا المائدة بالأواني والأكواب المتألقة.

أخذت الطفلتان تتناولان الزيتون بينما فتح ماركو زجاجة عصير وهو يتحدث. بدا جلوسهم جميعاً للغداء أمراً شبه طبيعي، في نظر بايتون. كانت ماريلينا جميلة حقاً. بدت في منتهى الهدوء والصفاء، وهذا يعني أنها وماركو سيكونان أبوين جيدين للطفلتين.

نظرت إلى الطفلتين بمزيد من الولع. كانتا تفرغان ملاعق المعكرونة بالزبدة في فمهما وهما تهمسان لبعضهما البعض.

لاحظت أنهما تستمتعان وجودهما هنا حيث تأكلان في الخارج في الشمس، وهما ترتديان ملابس قطنية خفيفة.

انقبض قلبها لمجرد النظر إليهما. كانت تحبهما حتى الألم. هل هذا هو شعور الأمهات كلهن؟ هل كل الأمهات يخفن من يوم يكبر فيه الأولاد ويفارقونهن؟

شعرت بنظرات عليها فالتفتت لتشتبك نظراتها بنظرات ماركو. بدا على ملامحه تعبير غامض لكنه عنيف. لم يوجّه إليها أيّ كلمة طوال الغداء، مكتفياً بالتحدّث إلى ماريلينا والطفلتين، وإذا بهما الآن يواجهان بعضهما البعض عبر فجوة باتساع المحيط الأطلسي الذي اجتازته لتوّها.

انقبض قلبها مرة أخرى وأخذت نفساً خفيفاً، كارهة شعورها بالاضطراب البالغ لهذا الاختلاف بين الماضي والحاضر.

إنها مع ماركو مرة أخرى ما جعلها تدرك أن الحب لم يمت بينهما. كان مدفوناً فقط، ما جعلها تتظاهر بموته.. ما من شيء بينهما. ما من شرر، أو تفاعل، أو مشاعر من أي نوع.

أقنعت نفسها بعد كثير من البكاء بأن كل هذا ما هو إلا تخيلات نتيجة وحدتها.

لم يكن يحبها، وهذه الحقيقة آلمتها وحطّمت قلبها وأفرغته من الحنان والأمل والرغبة.. وتظاهرت بأنها لم تشعر نحوه بشيء قط وبأنها لم ترغب فيه قط.

اغرورقت عيناها بالدموع فغالبتها بسرعة، ترفضها كما رفضت كل شيء آخر في السنوات الثلاث الماضية.

سيكون من الصعب اجتياز هذا الاختبار وإنجاز ما جاءت من أجله.

انتهى الغداء، ووقف ماركو متحدثاً عن قضاء بعض الوقت مع ماريلينا قبل عودته إلى العمل.

سمعت بايتون الطفلتين تودعان ماريلينا وقد تداخل صوتاهما الخافتان كما تفعلان غالباً، فيما انحنت ماريلينا تقبّلهما قبل أن تخرج متأبطة ذراع ماركو.

وبعد ساعة خرجت بايتون من غرفة الطفلتين بهدوء بعد أن غطتهما جيداً، مطمئنة نفسها إلى أنهما مرتاحتان حقاً.

وقفت عند العتبة ونظرت إليهما وهما نائمتان. كانتا متواجهتين وكأنهما تتهامسان قبل النوم.

كان فيهما الكثير من ماركو. ولطالما خطر لها بمرارة أنها فقدت ماركو لكنها وجدته في هاتين الطفلتين اللتين تذكرانها به يومياً. لقد ورثتا الكثير منه.. الطريقة التي ترفع بها جايا حاجبيها، وكيف تميل ڤيليا رأسها إلى جانب، وعدم صبرهما وموهبتهما مثله. لعلهما رقيقين ظاهراً، لكنهما، داخلاً، خشنتين مثل ماركو بالضبط.

لقد خلب ماركو لبها منذ البداية، وكان قد مضى على عملها في «دار دانجيلو» ثلاثة أسابيع حين رأته لأول مرة. كان جالساً وسط آخرين، لكنه بدا مختلفاً، متميزاً عنهم.

كان قد استلم عن أبيه شركته المشهورة، لكنه كان مصمّماً حقيقياً في أعماقه وعمله يتطلب كل وقته.

كانت تعشق النظر إليه وهو يخطط الأزياء، وتجد دوماً الأعذار لتقترب من الصالون عندما يشرف على قياس الأثواب، فتصغي إليه وهو يتكلم، راغبة في مزيد من المعرفة. لطالما تلهفت إلى مزيد من المعرفة.

كانت تتصل بأمها في العطلات اتصالات مختصرة ومكلفة للغاية.

لكنها صممت على أن تجعل أمها جزءاً من مغامرتها الكبرى.

كانت الأم تعشق أخبارها، كما كانت بايتون تعشق أن تسمع أمها تضحك وتحب أن تعلم أنها فعلت ما يجعل أمها تفخر بها.

وتملكت بايتون غصة... أمهات وبنات.. ثم تصبح البنات هن الأمهات.

وغالبت دموعها وهي تنسّل من غرفة الطفلتين لتغلق الباب خلفها بخفة. كبحت مشاعرها وعادت إلى غرفتها حيث وجدت ماركو في انتظارها.

سألها: «هل إرقاد الطفلتين يستغرق، عادة، هذا الوقت الطويل؟».

طرفت بعينيها علّها تجفف الدموع بسرعة: «جلست معهما فترة».

نظر إلى وجهها متفحصاً: «تبدين مختلفة يا بايتون. أنت لست كما كنت».

- هذه السنة كانت شاقة للغاية.

- هل كان عملك شاقاً؟

فلوت شفتيها: «أليس عمل كل إنسان شاق؟».

مال برأسه جانباً: «ربما... أتظنينهما ستنامان لفترة؟».

- ساعة على الأقل.

- لعل الوقت مناسب إذن للحديث. لقد ذهبت ماريلينا، والبنتان نائمتان. لذا، يمكننا أن نتحدث بشكل صحيح ومن دون أي مقاطعة.

نتحدث بشكل صحيح. أخذت بايتون تكرر هذه العبارة وهي تتبع ماركو إلى الصالون الصغير في الطابق الأرضي.

إنها تعرف ما يعنيه بالحديث بشكل صحيح فماركو سيقوم بالحديث.

إنه مصمم على التحكم في كل ما حوله.. وهو أستاذ في التحكم في نفسه. ما عدا في ذلك الوقت فقط.. إنه الوقت الوحيد الذي فقد فيه السيطرة، فتغيّر كل شيء. هفوة واحدة وإذا بحياته المستقرة تهتز.

في الطابق الأسفل لم يجلس ماركو بل دسّ يديه في جيبي بنطلونه وواجهها بملامح متوترة: «أنا وماريلينا تشاجرنا لأول مرة اليوم».

لم يكن هذا ما توقعته فضغطت بيديها على حجرها واستقامت في جلستها.

وتابع هو ببساطة من دون مشاعر في صوته: «كان ذلك بسببك. إنها تدرك أنني لست مرتاحاً معك هنا. تدرك أنني غاضب. وهي... لقد دافعت عنك قائلة إنها أحبتك وطلبت مني أن أكون لطيفاً معك».

نظر ماركو بعيداً، وابتلع ريقه: «فقدت أعصابي معها. فقدت أعصابي لأنني ظننت أنها لا تعرفك، لا تعرف كم أنت خطرة».

فقالت بهدوء: «أنا لا أشكّل تهديداً. أنا لست هنا لكي أفرّق بينكما، وقد قلت لك ذلك».

- لماذا إذن يتملكني الخوف من أن تهدمي كل شيء؟

لم تستطع أن تبعد نظراتها عن نظراته المتوهجة: «لا أدري».

ضحك برقة، ومن دون بهجة: «لدي مليون مهمة حالياً ولا أستطيع أن أركز على أيّ منها. إنها ذكرى إنشاء مؤسسة «دانجيلو» الخمسين، وسأتزوج بعد أقل من شهرين ونصف. وأنا أعمل بشكل محموم لتجهيز مجموعة أزياء الربيع التي ينقصها الحيوية. تباً لذلك، يا بايتون! لست بحاجة إلى هذا الآن. إنني أحب ماريلينا ولا يمكنني

أن أسمح لك بالتدخّل بيننا. ولا أدري ماذا أفعل بك. لا أدري إذا كان عليّ أن أرسلك إلى فندق أو أعيدك إلى بيتك. لكنني لا أستطيع أن أدع ماريلينا تعلق بيننا».

تملك بايتون شيء من الذعر. لا يمكن أن يعيدها ماركو إلى بيتها.. ليس الآن على الأقل، ما زال أمام الفتاتين الكثير للشعور بالاستقرار.

- سأبتعد عن طريقك. سأسعى لئلا يراني أحد...

فقاطعها ضاحكاً: «أنت غير مرئية يا بايتون؟ أنت تدخلين غرفة فتشتعل الغرفة».

- سأحاول جهدي...

فقاطعها مرة أخرى: «لكن الأمر لا يتعلق بك فقط. هذا ما لا تفهمينه يا بايتون. أنا لا أدري ما هو، لكنك تغيّرين الأشياء.. إنك تغيرين شيئاً في داخلي. لا أستطيع أن أتجاهلك. إنني... لا أدري كيف».

وشتم بصوت خافت.

اتسعت عينا بايتون، وخفق قلبها. كانت تظن أنه لا يكترث بها كلياً، ظنته غافلاً عنها. وقالت: «هذا لأننا كنا متزوجين. لأننا كنا.. متحابين...».

فضحك ساخراً: «كان لديّ علاقات مع كثيرات، لكنني لا أشعر بشيء الآن حين يدخلن الغرفة».

ونظر إلى جسدها فالتهبت عيناه حرارة وغضباً.

وتابع يقول: «لكنني لن أسمح لهذا بأن يحدث. لا أستطيع أن أدع الجاذبية تدمّر كل شيء مرة أخرى. كما أنها ستدمّر ماريلينا وهي تستحق أفضل من هذا بكثير».

كان ينذرها.. وينذر نفسه معها. وتشابكت أعينهما عبر الغرفة.

وانصفق الباب الأمامي، وتردد صوت ماريلينا المرتجف في المدخل: «ماركو.. هل أنت هنا؟».

بقيت أعين ماركو وبايتون متشابكتين لحظة أخرى قبل أن يشيح بوجهه فجأة، فيما ظهرت ماريلينا عند الباب: «ما أغباني».

واختنقت وهي تسرع إلى جانب ماركو: «كنت مستاءة فلم أنتبه».

رفع ماركو يده إلى صدغها: «أنت تنزفين».

- هذا غير مهم.

- ماذا حدث؟

- تجاوزت الإشارة من دون تفكير. كنت متكدرة، باكية.. فتجاوزت الإشارة.

- يا إلهي.. وكيف حالك الآن؟

- لا بأس. حالتي حسنة... لكن السيارة...

- هذا غير مهم.

- بل هو مهم. فأنا أحب تلك السيارة. إنها منك.

- سأشتري لك سيارة جديدة. ففي ثابتة لأرى.

ورفع وجهها الشاحب يتفحصه: «كيف أصبت رأسك؟».

- اصطدمت بشيء ما. النافذة أو عجلة القيادة. لكن الأمر غير مهم.

- سآخذك إلى المستشفى.

والتفت ينظر إلى بايتون لتشتبك نظراتهما لثوانٍ. لقد تذكرا ما جرى بينهما من حديث، ثم وضع ماركو ذراعه حول الأميرة وأدارها نحو الباب ليخرجا إلى حيث سيارته.

توقعت بايتون اتصالاً من ماركو فجلست تنظر إلى الهاتف بينما أخذت الطفلتان تلهوان.

لطالما كان الانتظار ثقيلاً على بايتون. حين غادرت ميلانو إلى سان فرانسيسكو، كانت ترى الأيام من دون نهاية.. وكانت الأسابيع الستة الأولى هي الأسوأ. بدا الوقت طويلاً مرهقاً كالحياة نفسها.

شعرت بأن خسارتها لزوجها أصبحت هاجساً لديها إذ ركزت اهتمامها على الهاتف. لعله سيتصل أو يكتب لها. كانت تتفحص جهاز الرسائل في الهاتف أكثر من عشر مرات يومياً. وعندما لم يتصل بها انتابها ألم هو من العنف بحيث تلهفت إلى أي شيء للتخلص منه.

وإذا كانت الأيام طويلة، فالليالي كانت أطول. والدموع التي أخفتها عن طفلتيها أثناء النهار، راحت تنهمر طوال الليل. ساعات من الدموع الصامتة، ساعات من الحزن الذي يتعذر تفسيره. لم تمض مع ماركو وقتاً طويلاً فلماذا تتملكها كل هذه الوحشة المدمّرة؟

كانت تبكي حتى تتبلل وسادتها، ثم تذهب إلى مكتبها وتحاول أن تضع آلامها في رسالة.

قفزت بايتون حين انفتح الباب الأمامي. وصرخت الفتاتان وركضتا لتريا من القادم. إنه ماركو!

سألته بايتون وهي تلحق بابنتيها إلى الردهة: «كيف حالها؟».

كانت جايا ترقص حول ماركو، بينما وقفت ليڤيا على قدم واحدة ورفعت بصرها إليه بقلق.

- إنها ترتاح. لقد اصطدم رأسها بعجلة القيادة فأرادها الأطباء أن تمضي ليلة في المستشفى للمراقبة.

- خوفاً من أي ارتجاج في المخ؟

- نعم. أتصور أنهم سيخرجونها في الصباح، لكنني وعدتها بأن أعود إليها لاحقاً، فالإقامة في المستشفى ليست بهيجة، إذ لم يعد لديها أقارب.

- أتفهم شعورها.

وكانت بايتون تتفهمها حقاً، لأنها هي أيضاً لم يعد لديها أحد.

نظر إلى ساعته: «سأغتسل ثم أرتدي ملابسي قبل العشاء. سنتناول الطعام كأسرة واحدة ثم أعود إلى ماريلينا».

كان العشاء طبيعياً إلى حد غير معقول، كما رأت بايتون وهي تحث جايا، وللمرة الخامسة، على أن تجلس وتتناول طعامها. ولم تحاول ليڤيا التملص من الأكل مثلها، لكنها كانت بحاجة إلى الإرشاد هي أيضاً.

قالت الأم مشجعة: «زيدي طعامك يا ليڤيا. أنت لا تريدين أن تستيقظي في منتصف الليل جائعة، أليس كذلك؟».

تحدث ماركو مع الطفلتين بالإنكليزية غالباً إلا أنه كان يلجأ إلى الإيطالية أحياناً فسره أن البنتين تفهمان ما يقول. كانت ليڤيا أكثر طلاقة من جايا لكن الإثنتين قادرتان على أن تجريا حديثاً بسيطاً بالإيطالية، فسأل بايتون: «كيف تعلمتما هذا القدر من اللغة؟».

- لهما صديقة إيطالية وهي رائعة معهما.

لم تقل له بايتون إنها علّمت الفتاتين في بادىء الأمر ثم وجدت أستاذة إيطالية في الجامعة تولّت مهمة تعليمهما بعد ظهر كل يوم وفي العطل الأسبوعية.

وكانوا قد بدأوا بتناول الحلوى عندما قرع جرس الباب. وجاءت خادمة تهمس شيئاً لماركو، فطلب منها أن تُدخل الزائرة.

وبعد لحظة، دخلت امرأة شابة ترتدي معطف سفر. وبابتسامة ظافرة، أخرجت من حقيبة يدها دثاراً أزرق اللون.

صرخت جايا وركضت نحو الدثار فيما قفزت ليڤيا في كرسيها.

ناولتها الزائرة الدثار فاحتضنته وضغطته على خدها.

نظرت بايتون إلى ماركو فرأته مستنداً إلى الخلف وقد شبك ذراعيه على صدره يراقب ليڤيا وجايا ترقصان.

كانت بايتون تعلم أن السعادة تمرّ بسرعة، ولكن في هذه اللحظة، لكل شيء معنى. وهمست شاكرة: «شكراً، يا ماركو».

سمعها فالتفت إليها، وبعد لحظة ابتسم قائلاً: «من دواعي سروري».

ورأت أن سرور طفلتيه جعله سعيداً.

لكن عندما انتهى العشاء واستعد ماركو للعودة إلى المستشفى، شعرت بايتون بالضياع. بعد كل ما جرى بينهما، ما زالت تستمتع بصحبته، وما زالت تحب المشاعر التي يثيرها في داخلها.

قال وهو يتوجه إلى الباب: «يجب أن أعود إلى ماريلينا. أتحتاجين إلى أيّ شيء قبل أن أذهب؟».

- لا.

وفجأة أدركت أنها لا تقول الحقيقة. هل هي بحاجة إلى شيء؟ وكادت تضحك لسخرية القدر.

لا. ليست بحاجة إلى شيء، بل إنها بحاجة إلى كل شيء.

٤ - لها سحر خاص

بدأت الأمور تتعقد، كما خطر لماركو في الصباح التالي وهو يعود إلى المستشفى الخاص للمرة الثالثة في أقل من أربع وعشرين ساعة.

في السنتين الأخيرتين، كان يلوم بايتون على فشل زواجهما وتحطم الأسرة. لقد أقنع نفسه بأنها دمّرت أسرتهما وفرقتها بكل أنانية بعودتها إلى كاليفورنيا مع الطفلتين. لكنه، في أعماقه، كان يعلم أن الذنب ليس ذنبها كله. فهو يتحمّل مسؤولية في تحطم علاقتهما بقدر مسؤوليتها. نعم، لقد عادت إلى سان فرانسيسكو لكنه سمح لها بذلك.

وها قد عادت الطفلتان، فعشق وجودهما في المنزل مرة أخرى. لكن بايتون أمر آخر. إنه يعلم أن عليها أن تكون في بيته.. ولكن أن تكون في داخله هو؟

لا ينبغي أن تكون قادرة على تكدير حياته، كما لا ينبغي أن يكون لها أي تأثير عليه، لكنها ما زالت تفعل.

ما زال يكنّ لها شعوراً قوياً... شعور قوي عنيف يفقده تحكمه في نفسه.

في الليلة الراقصة حين أنقذ بايتون من قبضة كارلو ڤيري ضلّ طريقه لفترة. وقع في غرم بايتون بعنف رغم أنه ما كان ينبغي له أن يفعل ذلك فقد كان على علاقة بالأميرة بورجيانو وقد تعاهدا على أن يتزوجا. وكان الكل يعرف هذا.. ومع ذلك، عندما رقص مع

الأميركية الشابة الحمراء الشعر، كل شيء تغيّر.

ومنذ ذلك الحين لم تعد الحياة كما كانت على الإطلاق.

أخرج ماركو ماريلينا من المستشفى وأخذها إلى بيتها حيث طلب من الخادمة أن تتنبه جيداً للأميرة.

وبعد أن اطمأن إلى أن خطيبته مرتاحة، عاد إلى مكتبه ليجد فريق الفيلم الوثائقي يفسدون نظام الأثاث، ويركّزون الأضواء ومكبرات الصوت.

جلس استعداداً للمقابلة، ومرّت الساعة بسرعة فقد كان يستمتع بالحديث عن أبيه إذ عملا معاً فترة طويلة. حتى في هذه الأيام، ما زالت قدرة أبيه على التخيّل تلهمه.

وما إن توقف المصوّر عن التصوير حتى أطل رأسان صغيران من الباب.

قالت ليڤيا وقد بدا عليها الخجل والإثارة: «هالو، بابا. هذا أنا، ليڤيا».

وبابتسامة عريضة، نزع مكبر الصوت من قميصه ثم انحنى وحملها بين ذراعيه: «نعم، أعلم هذا».

قبّلها ثم التفت إلى جايا التي راحت تقيّم أباها بنظرة انتقادية: «صباح الخير يا جايا».

فأجابت ويداها على وركيها: «صباح الخير يا بابا، كيف حالك؟».

- جيد، وكيف حالك أنت؟

التوت شفتاها قليلاً لكنها بقيت مصممة على عدم الإبتسام وأجابت وعيناها تلمعان: «لا بأس».

كتم ماركو ابتسامته، ستكون صعبة المراس وعنيدة، ذات يوم.

إنها جميلة جداً وبالغة الحيوية، كأمها تماماً.

والتفت فجأة يبحث عن بايتون فوجدها خلف البنتين. قالت وهي تتقدم نحوه وتضع يدها على رأس جايا: «آسفة للمقاطعة. كانت البنتان متلهفتين لرؤية مكان عملك. وهذا صباح رائع للتمشي».

بدت أنيقة ومثيرة في ثوبها الأسود المخطط باللون البرتقالي. كانت تنتعل حذاءً أسود خفيفاً عالي الكعبين.

سألها غير مصدق: «هل سرت بهذا الكعب العالي؟».

فابتسمت: «جزء من الطريق، وبعد ذلك استقلينا سيارة أجرة».

- كان عليّ أن أفترض ذلك.

أعجبته الألوان الجريئة والخطوط القوية. قد تسيء الألوان الحادة إلى امرأة أخرى، لكنها تناسب بايتون.

- تبدين إيطالية.

وتقدم ليقبلها على خدها، فابتسمت بفتور، ورأى غمازة تضطرب قرب فمها.

كانت رائحتها أجمل من مظهرها وخدها ناعماً كالساتان.

اتسعت ابتسامتها وتألقت عيناها بالتسلية: «ثوبي من تصميمي، من مجموعة أزياء الخريف الماضي».

- إنه جميل.

أعجبته غمازتها وطريقة لويها لشفتيها كما أحب عطرها الناعم المميز الذي ما زال يتذكره.

وعاد يسألها: «ولكن هل راج في السوق؟».

- لم يبق منه شيء في المخازن.

- لكن الخطوط الأفقية لا تظهر الجمال.

فكادت تنفجر ضاحكة: «إذا عدّلت عرض الخطوط، فلا يشكّل ذلك مشكلة».

كان يغيظها مداعباً بعد أن اعتاد أن يكون جاداً للغاية معها. تلك الليلة في دار الأوبرا، الليلة الأولى كان مرحاً ممتعاً، لكنه تغيّر بعد ذلك.

- علينا أن نذهب. إننا نشغلك.

قالت هذا بعد أن انتبهت إلى أن كل من في الغرفة ينظر إليهما ويسمع كلامهما. في الواقع، كان أحد المصورين يصورهما.

- لا، أنت لا تشغلينا. كنت متوجهاً لأرى ما فعلوه بالإعلان.

سألته جايا بحماسة: «إعلان؟».

فأجاب موضحاً: «إعلان للنشر في مجلة».

فقالت ليڤيا وهي تربت على صدره: «هل يمكننا أن نرى الإعلان؟ أيمكننا ذلك؟ أرجوك».

- ولِمَ لا؟ هذا عائد لأمك.

والتفت إلى بايتون سائلاً: «هل تريدين المجيء؟ مرحباً بك رغم أن عليّ أن أنبهك إلى أن هذا الاعلان سبب لنا مشكلة وصداعاً لا ينتهي».

- ما الذي حدث؟

كانت بايتون خبيرة في عذاب الإعلانات، فقد نالت حصتها منه هذه السنة.

- كل ما فيه لم يكن مناسباً. وقد صورناه مرتين. لكن تعالي معي وستريه بنفسك.

أنزلهم سائقه الخاص في المنطقة التجارية حيث صوّر إعلان العطور.

دخلوا المصعد، وجعلت بايتون ابنتيها تجلسان في الزاوية وتخرجان بهدوء. لقد علمتهما الأم متى تجلسان جامدتين وتدعانها تعمل.

طلب ماركو منها ذلك وهو يناولها دفتر لوحات وكالة الإعلان: «انظري إلى هذه وأعطيني رأيك».

- إنها جميلة.

- هيا... قولي الحقيقة.

فقالت مترددة: «إنها جميلة، وأنيقة كما أنها كلاسيكية دقيقة».

- كوني صادقة فأنت لن تؤذي مشاعري. أعلم أن ثمة مشكلة، ومديرة قسم العطور عندي لديها رأيها الخاص.

وأخفض صوته مشيراً برأسه إلى امرأة قريبة منهما.

سألته وهي تقلب صفحات الدفتر: «وهل هذا رأيها؟».

- إنه أقرب ما يمكن لما اتفقنا عليه.

غضّنت بايتون أنفها: «إنها عادية بعض الشيء... لا توحي... بالشباب».

- أعلم هذا... ماذا ستغيرين فيما لو كان الإعلان لك؟ أتراه جاداً؟

- لكنه ليس إعلاني. أنا أعمل مع كالڤانتي، بينما أنت دانجيلو.

- هذا صحيح. لكنك عملت معي يوماً وأنت تعرفينني.

رفعت بصرها إليه فتقابلت نظراتهما. كان ينتظر منها أن تقول شيئاً.

- أنا أعرف مستواك، لكنني لا أريد أن أتدخل. هذه الإعلانات تكلف مبالغ باهظة...

فتفحص وجهها: «لهذا السبب سألتك رأيك. أنت ماهرة، يا

www.rewity.com

بايتون. لديك نظرة جيدة للغاية، وشعور ابداعي غريزي».

أتراه يجاملها؟ وشبكت ذراعيها على صدرها؟ قائلة: «إذن، لم توظفني دار كالفانتي من أجل اسمي دانجيلو؟».

توهجت عيناه والتوت شفتاه ثم نظر إلى ابنتيه قبل أن يعود لينظر إليها: «ليس تماماً».

رفعت حاجبيها فيما تمتم بصوت منخفض: «لا بأس، إنهم محظوظون لحصولهم عليك، وهذا لا علاقة له باسم دانجيلو. أنت جيدة... جيدة للغاية. ولكن كنت لتصبحي ذات شأن هنا».

أهو ندم ما تسمعه في صوته؟ هل كان حظها ليصبح أفضل هنا في ميلانو مع ماركو؟ هل كانت الأمور ستسير بينهما بشكل مختلف؟

- ما هو السوق الذي تستهدفونه؟

فأجاب: «سوق جيل العشرينات والثلاثينات».

- الراشدون من الشبان والشابات.

وعادت تدرس اللوحات: «الألوان مناسبة، والثوب الأحمر رائع الجمال...».

فقاطعها: «إنه افتتاحية «دار دانجيلو»».

- أعلم ذلك. إنه أول ثوب وضع أبوك اسمه عليه.

ونظرت إليه ضاحكة مضيفة: «يمكنني أن أخبرك كل شيء عن أبيك، فقد درست أعماله لسنوات».

- كيف ننقذ إذن هذا الإعلان قبل أن أفقد خمسين ألف دولاراً؟

- حسناً، العارضة تبدو ناعسة في هذا الرسم التخطيطي لا بل تبدو ضجرة. إنت لا تبيع عطراً لسيدات عجائز بل لنساء عصريات بحاجة إلى حماسة ومغامرة.

- ماذا علينا أن نغيّر؟

- شيئاً قليلاً في المجموعة كلها. اللون الياقوتي رائع، واللون الأحمر أبدي وعصري على الدوام. دع العارضة تخلع قفازيها وأبعدها عن أريكة النوم بحق الله.

- هذا حسن.

والتفت يشير إلى ماريا مديرة قسم العطور: «سنجري بعض التعديلات. استدعوا كاتب الإعلانات والمدير الفني لتشرح لنا بايتون ما تريد أن تفعل».

وشرحت بايتون رأيها في الإعلان. وعندما انتهت ألقت ماريا نظرة جانبية على العطور، قائلة باختصارك: «لا أفهم هذا. لا أفهم كيف يمكن لفتاة ترقص أن تجعل هذا الاعلان ينجح».

فقال ماركو: «إنها نقودي، فلنجرب لنرى النتيجة».

نظرت بايتون خلفها إلى التوأمين فرأتهما متضايقتين، ضجرتين، فقالت: «أظن أنّ الفتاتين تعبتا».

- الحق معك، فقد أتعبناهما، أليس كذلك؟

وسحب هاتفه الخلوي مضيفاً: «سأجعل بيترا تحضر مع السائق وتأخذهما إلى البيت. بيترا هي معلمة وقد استخدمتها أثناء وجودك هنا. لقد استعان بها بعض الأصدقاء وقالوا إنها رائعة. أظنك ستحبينها».

وبعد نصف ساعة حضرت بيترا حاملة معها للطفلتين كعكاً حلواً وكتباً ملوّنة وسألتهما: «أتريدان أن ترسما في البيت؟ لقد اشترى لكما والدكما أقلاماً ملوّنة رائعة».

ابتهجت الطفلتان لمغادرة الإستديو فقبّلتا ماركو وبايتون مودعتين.

بعد ذهاب الطفلتين، ساد في الأستديو جوّ جاد وابتدأ الفريق

والمصوّر والعارضة بالعمل. أعجبت بايتون بما رأته. كانت العارضة الرائعة لا تزال ترتدي ثوب دانجيلو الأنيق المحكم على جسمها لكنها، وبدلاً من التكاسل، بدت لعوباً عابثة وهي تمدّ يديها لتأخذ قبضة من قطع الورق القرمزية اللون. وألقت العارضة رأسها إلى الخلف وهي تضحك فيما تساقطت قطع الورق الحمراء اللامعة عليها.

قال ماركو بهدوء وهو يومىء برأسه موافقاً: «إنه زواج القديم والحديث. إنه الماضي والمستقبل. إنها تلبس ثوب دانجيلو القرمزي، فيما تمثل قطع الأوراق المنثورة مرح الصبا».

نظرت بايتون إليه وابتسمت: «فتنة وأناقة دانجيلو مع جرأة المرأة العصرية».

- بالضبط.

لمست في لهجة ماركو سروره البالغ، فشعرت بالرضا. إنها المرة الأولى التي تعمل فيها معه منذ سنوات، ومع ذلك بدا ذلك طبيعياً للغاية. شعرت أنه صوابٌ تماماً.

وعندما التقط المصورون صورهم الأخيرة، قال ماركو: «لقد أعجبني الإعلان حقاً. أظنك نجحت في تصميمه».

غادرا الإستديو معاً. وكان الشفق يصبغ المدينة عندما فتح ماركو باب سيارته الفيراري لها: «لابد أنك جائعة، فقد عملنا أثناء وقت الغداء».

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تعمل فيها بايتون أثناء وقت الغداء. فسألته وهي تصعد السيارة: «هل هذه سيارة جديدة؟».

لطالما عشقت سياراته، فهو يعتني بها جداً.

أجاب وهو يجلس وراء المقود: «اشتريتها منذ حوالى سنتين».

نظرت إليه بسرعة: «لقد أحببتها».

ظل لحيته جعل فكه داكناً، فيما نزل شعره الكثيف الأسود على جبينه. وخفق قلبها. ما زالت تتفاعل معه، ما زالت تريد أن تلمسه.

انطلق ماركو بالسيارة وهو يقول: «شكراً لمعلوماتك. كنت متألقة الذكاء اليوم، وقد فعلت ما أردتك أن تفعليه».

وتوجها إلى وسط المدينة.

- ما رأيك في ماريا؟

كانت ماريا جافة، وشعرت بايتون بأن تدخلها لم يعجبها. لكنها أجابته بحذر: «أظنها ما زالت تتعلّم».

- أتعنين أنها لا تحب المجازفة؟

كانت بايتون تكره إدانة أي من موظفيه. «دار كالڤاني» أكثر حيوية فيما «دانجيلو» طبيعية بوجه عام لكنها تميل إلى التحفظ.

أجابته: «لا أدري. لم تستطع أن أكوّن رأياً عنها. لعلها عظيمة».

نظر ماركو إليها يقيّمها وقد ضاقت عيناه: «هذا يعني أنك لا تحبينها ولا تظنينها مناسبة لهذا العمل».

- لا بأس. لا أدري إذا كانت مناسبة لقسم العطور.

- أين ترينها مناسبة؟ خبيرة في النسيج؟ في تأثيث البيت؟

- في قسم الأكسسوار». إنها تحب الأناقة والأزياء الكلاسيكية. مجموعتك الجلدية كلاسيكية حتماً، مثل الأحذية والأحزمة وحقائب اليد.

ابتدأت ميلانو تتألق وتوجه ماركو إلى مركز المدينة التاريخي ومن ثم إلى مكان قريب من منطقة الأزياء وقال باسماً بسخرية: «لن أخبر

ماريا باقتراحك. إنها تظن أن تصميم «الأكسسوار» عمل ممل».

- حقائب اليد تجلب لدور الأزياء مبالغ طائلة.

ضحك ماركو برقة: «لقد أصبحت ذكية».

فاندفعت قائلة وبهجة نجاح هذا النهار لا تزال تتملكها: «لطالما كنت ذكية، لكني أصبحت الآن أكثر حكمة».

- على أيّ حال، لقد أعجبني ذلك. إنه يلائمك.

وأوقف ماركو السيارة إلى جانب الطريق مضيفاً: «لم نتناول الغداء وأنا واثق من أنك تكادين تموتين جوعاً، فلنأكل شيئاً».

اعتذرت بايتون في المطعم وتوجهت إلى استراحة السيدات. أخذ ماركو ينظر إليها وهي تبتعد كما فعل كل من في القاعة تقريباً.

كان لبايتون سحر خاص. إنها رائعة الجمال، لكن ليس جمالها وحده ما يثير انتباه الرجال بل طاقتها، وبريق عينيها، وطريقة تألقها.

وكانت هذه الليلة متألقة.

عادت بايتون إلى المائدة، فوقف ليساعدها على الجلوس، ثم سألها وهو يشير إلى النادل: «هل فكرت قط في العودة إلى ميلانو؟».

- العودة؟

- ستجدين عملاً بسهولة.

- ليس هذا هو الموضوع.

- إنني، في الواقع، مستعد للحديث عن عودتك للعمل معنا في دانجيلو.

- ماركو... هذا لن يحدث.

نظر إليها قائلاً: «لا أريد أن أفقد ابنتيّ. سيكون من الأفضل أن نتشارك في تحمّل مسؤوليتهما».

- أتعني الحضانة؟

- بالضبط. وأنا أعني أكثر من مجرد الإجازات. أريد أن أكون أباهما وليس رجلاً غريباً.

غصت بريقها، فهذا ما تريده للطفلتين أيضاً. ولهذا جاءت بهما إلى هنا. لكن فكرة أن تقضي أوقات أقل معهما أثارت ذعرها. قالت: «ربما بإمكان البنتين أن تمضيا هنا الأسبوعين التاليين».

- ثم تأخذينهما بعد ذلك مني؟ لا، لا يمكنني أن أحتمل هذا الفراق الطويل. هذا ليس حسناً للفتاتين، أو بالنسبة إليّ. هذا ليس حسناً بالنسبة لأي منا.

- هذا صحيح.

- لهذا أريدك أن تفكري في العودة إلى هنا. أنت تتكلمين الإيطالية، وتعرفين المدينة، وتعرفين عن الأزياء. إنه المكان المناسب لك تماماً. ستكون الفتاتان سعيدتين وأنا أيضاً.

انتفض قلبها قليلاً عند الجملة الأخيرة: (ستكون الفتاتان سعيدتين، وأنا أيضاً).

ماذا يعني بكلمة (سعادة)؟ أتراه يتمنى لو بقيا معاً؟ لو حاولا إصلاح الأمور بينهما؟ وتمنت أن تتحلّى بالشجاعة لتسأله، لكنه سؤال شخصي. سؤال لم يعد مناسباً الآن بعد أن خطب امرأة أخرى.

إلا أنّ كلماته جعلتها كئيبة متلهفة. لطالما خطر لها أن الحياة ستكون أكثر بساطة لو بقيا معاً.

ما الذي يجعل العلاقات تنجح؟ ما الذي يجعل بعض الناس يتناسبون دون البعض الآخر؟ ما الذي كان بإمكانها أن تفعله غير ما فعلت؟

وصلت أطباق الطعام فتوقف الحديث فجأة وراحا يأكلان. لكن عندما انتهيا ورفع النادل الأطباق، عاد ماركو إلى حديثه: «لا سبب يمنعنا من أن ننشىء الطفلتين معاً، فنحن نحبهما ونريد لهما الأصلح».

قال هذا بعنف وجدّ، فردّت بايتون بعد لحظة طويلة: «هذا سيجعل الفتاتين تتعلقان بالأمل.. في أن نعود إلى بعضنا البعض».

- لن يحدث هذا إذا كنت متزوجاً من ماريلينا.

- الأطفال لا يفهمون أمور كهذه، ما يفهمونه هو فقط ماما، بابا، الأسرة.

تحرك بفروغ صبر: «سنخبرهما إذن أن لديهما والدتين، تماماً كما قد يكون لهما والدان يوماً ما».

أجفلت بايتون. لم تستطع أن تتصور أنها قد تقع في غرام شخص آخر. ورغم أنه من المستحيل أن يكون ماركو مغرماً بها، إلا أنها تحبه. لطالما أحبته ومنذ البداية.

قال: «أنا لم أسألك قط، ولكن هل من رجل آخر؟ هل كان لديك رجل آخر؟».

اختنق صوتها: «لا».

- هل أنت مشغولة إلى هذا الحد؟

حاولت أن تبتسم: «نوعاً ما».

أمسك بيدها فارتجفت لهذه اللمسة غير المتوقعة.

قال لها بهدوء: «لا أدري كيف حدث ذلك. لا أفهم كيف ابتدأنا وكيف انتهينا، لكنني لم أكرهك قط يا بايتون. أنا لست عدواً لك ولم أكن كذلك قط».

اعتصر قلبها: «لقد كرهتني لأنني حملت».

- أنا لم أكرهك بل رغبت فيك.. كثيراً.. ولكن ثمة مبادىء.

- مبادىء.. هذا صحيح.

وارتجفت شفتها السفلى فجاهدت للتحكم في نفسها: «أنت والأميرة ماريلينا خططتما لكل شيء، وكنت أنا في الوسط».

فتنهد: «كنا على علاقة منذ سنوات، يا بايتون».

- أعلم هذا.

- وأنا أدين لها بالوفاء.

- طبعاً، كنت تحبها، ولم تكن تحبني...

وشعرت بغصة.

- الأمر ليس بهذه البساطة.

- لكنك لم تحبني. قلت إنك كنت ترغب فيّ فقط وهذا صحيح. كنت أنا للتسلية وفي متناول اليد. كنت مجرد نزوة عارضة.

فشتم بصوت منخفض: «أنا أكره هذه الكلمة».

- لكنها ملائمة.

- إنها تتضمن معنى قبيحاً.

فقالت وقد تشابكت نظراتهما: «وهذا ملائم أيضاً، أليس كذلك؟».

٥ ـ الدافع الخفي

اشتبكت عيناه السوداوان بعينيها. نظر إليها وكأنه استطاع أن يرى كل شيء من خلالها. وهذه المرة لم يكن في عينيه برودة أو غضب أو سخرية.

نظر إليها وكأنه يعيد النظر في ما حدث بينهما، وكأنه يرى الحفلة حيث حاولت بايتون جهدها كي تتجنب تحرشات رجل ثمل، هو مصمم أزياء مسن.

قال بعد صمت متوتر طويل وقد توتر فكّه: «كانت نيتي حسنة. أردت أن أساعدك فقط».

دار في نفسها صراع بين الماضي والحاضر، لتدرك أنه، في اللحظة التي ساعدها فيها، غيّر حياتهما إلى الأبد. وقالت: «لقد ساعدتني حقاً».

فقال من دون أن تضطرب نظراته العنيفة: «ربما كان الأفضل أن..».

- أن يغتصبني منافسك؟

وحاولت أن تضحك، فجاءت ضحكتها باهتة مذعورة، فقال وهو يكاد يبتسم: «لقد أضحكتني تلك الليلة. كنت غاضباً من كارلو لأنه حاول أن ينتقم من إحدى موظفاتي الشابات، لكنك جعلتني أنسى غضبي. تحدثنا، ورقصنا...».

وسكت وهز رأسه مضيفاً: «كنا ساذجين».

ثم تلاشت ابتسامته وتوتر فكه: «كان علينا أن ندرك عواقب الأمور. فحتى الرقص يمكن أن يكون خطراً. على الأقل كان عليّ أن أدرك هذا».

كانت بايتون تعلم أن ماركو والأميرة متفقان على الزواج وقد خططا لذلك منذ وقت طويل، قبل ليلة الحفلة، وقبل أن يتحادثا ويرقصا ويتعانقا.

كانت قد سمعت أن بينهما عهداً، إنما من دون خطبة رسمية. سمعت الأقاويل لكن الأمر لم يبدُ هاماً تلك الليلة بعد الأوبرا إذ كانت مفتونة به منذ وقت طويل، متيّمة به إلى حد أنها شعرت أنها أسعد النساء حظاً في العالم عندما طلب منها أن ترقص معه.

قالت بهدوء وهي تنظر بعيداً، شاعرة بالذنب: «كان عليّ أنا أيضاً أن أكون أكثر حكمة. كنت قد سمعت عن عهودك للأميرة، ولا أدري ما إذا لم أصدّق ذلك أم لم أهتم، لكنني تركت سحر تلك الليلة يتملكني، سحر الأوبرا، ثم الحفلة ثم سحرك أنت».

كان ينظر إليها والعنف في ملامحه، فيما تابعت تقول: «تحركت المشاعر فلم أنتبه إلا بعد فوات الأوان».

سأل لاوياً فمه: «هل كنت جذاباً إلى هذا الحد؟».

التهب وجهها وخفق قلبها بعنف. كان أكثر من جذاب... كان متألقاً! وأخذت نفساً سريعاً، وجاهدت للتحكم في مشاعرها: «كان ذلك رائعاً، وكانت تجربتي الأولى».

دفع ماركو الحساب، ثم خرجا متجهين إلى البيت. سارت بهما السيارة في الشوارع المظلمة، فأخذت تحدق إلى الخارج من خلال النافذة، بصمت.

لقد قال إنهما كانا ساذجين، وهو على صواب. في تلك الليلة

حين رآته، بدا وكأن القدر والمستقبل أقبلا معاً في وهج ساطع رائع من النور.

لن تنسى قط لحظة التفت ونظر إليها... إليها مباشرة.

كان يرتدي سترة رسمية من دون ربطة عنق وكان قميصه الأبيض مفتوحاً عند العنق، وشعره الأسود طويلاً كعادته دوماً.

عندما التفت إليها، ارتفع حاجبه الأسود بخفة ولمعت عيناه. بدا جذاباً إلى حد بالغ. وماكراً بعض الشيء... وعندما تشابكت أعينهما، شعرت وكأنها تلمح الحياة نفسها.

تذكرت صوت الجرس في دار الأوبرا، مشيراً إلى انتهاء فترة الاستراحة، فعاد مع مجموعته الأنيقة، بينما وقفت هي مسمّرة وساقاها ترتجفان. رأت ماركو يبتعد لكن الحاسة السادسة أنبأتها بأن أمرهما لم ينته بعد.

أوقف ماركو سيارته عند باب المرآب ثم قال مخترقاً الصمت: «بالنسبة إلى تصوير الإعلان، اقتراحك كان في الصميم. لا أدري كيف خطر هذا ببالك. لكنك كنت رائعة، شكراً».

- أهلاً وسهلاً.

تردد لحظة، ثم أطفأ المحرك وقال بصوت فاتر: «مارلينا طيبة مع الأطفال، وهي ترى أن طفلتينا رائعتان. ولعلك تدركين أننا نرجو أن ننجب أطفالاً لنا يوماً ما».

لم تعرف بايتون سبب تطرّقه إلى هذا الموضوع الآن، بعد هذا اليوم الرائع. وقالت: «فهمت».

- ستكون مارلينا أماً رائعة.

فأجابت بفتور: «أنا واثقة من ذلك».

- أعلم أننا سننجب طفلاً أو طفلين على الأقل، لكنها طمأنتني

إلى أن التوأم لن يحتلا المركز الثاني في البيت وستكونان مهمتين على الدوام.

إذا أراد أن يطمئنها فقد فشل في ذلك، كما خطر لبايتون وهي تنظر إلى يديها: «أين ستعيشان؟».

- هنا، طبعاً.

منزله... منزلهما. منزلهما السابق. واندفعت الذكريات، وامتلأ صدرها ألماً. رفعت بصرها الملتهب إليه، طالبة من الله ألا يجعله يرى فيهما الدموع: «هذا عظيم. هل من شيء آخر؟».

- لا.

كانت الطفلتان لا تزالان مستيقظتين، فقرأت لهما أمهما قصة قبل أن يدخل ماركو الغرفة. تراجعت بايتون خطوتين لتفسح له مجالاً ثم أخذت تنظر إليه وهو يتلو معهما صلاة، ويقبل كلاً منهما.

شعرت بالألم وهي ترى ليفيا تحيط عنقه بذراعيها وتضمه إليها لحظة أطول لتهمس له بخجل: «أنا أحبك يا بابا».

فأجاب وهو يقبلها: «وأنا أحبك أيضاً».

ثم وقف ينظر إلى ابنتيه قبل أن يقول: «تصبحان على خير».

لقد حان الوقت لتخبره... تخبره الحقيقة. لكن هذا لن يكون سهلاً، وما ظنته سيكون سهلاً أبداً.

خرجت بايتون خلف ماركو من غرفة الطفلتين، ثم سألته عندما وصلا إلى قمة السلم: «هل ترغب في شراب؟»

- شكراً.

دخلا غرفة جلوسه الخاصة التي تغطي الكتب جدرانها.

- هل فكرت في العمل معي؟ أنا جاد في ذلك.

وصمت لحظة قبل أن يتابع قائلاً: «سأستأجر لك شقة قرب

www.rewity.com
marmoria5555

منطقة الأزياء. أعرف منزلاً رائعاً معروضاً للبيع في شارع «ديلاسبيغا» القريب جداً من مكان العمل. للبيت حديقة جميلة، والغرف واسعة».

كانت كلماته مليئة بالمشاعر. وأخيراً قالت: «لا يمكنني ذلك. ليس الآن على الأقل».

- لِمَ لا؟

- الأمر معقّد. ولكن ثق بكلامي حين أقول إنني لا أستطيع الإنتقال إلى هنا قبل ستة أشهر.. أو سنة على الأقل.

- هل ستأخذين البنتين معك لسنة أخرى؟

- لا. لن آخذهما معي.. أنا... فكرت في أن أتركهما هنا.

- تتركينهما؟

أغمضت عينيها نصف إغماضة، لا تريد أن تنجرف خلف مشاعرها. وذكّرت نفسها بأن تفكّر في الطفلتين وفي براءتهما. فهما لا تعلمان بعد أنّ أمور سيئة قد تحدث للماما والبابا.

شعرت بحريق في عينيها فاستدارت وكأنها تريد أن تذهب، لكنها أدركت أن ما من مكان تذهب إليه. لم يعد لديها أحد.

لم يبق سوى ماركو.

هذه الحقيقة الصارخة أدارت رأسها، وشعرت بساقيها على وشك الانهيار فأشاحت بوجهها تغالب دموعها وتقاوم كل ما عانت منه وحدها.

- بايتون، ما بك؟

كادت تنهار إزاء حدة المشاعر في صوته، وأوشكت أن تخبره بكل شيء، لكنها عادت فتراجعت، شاعرة بالخوف. إنه الخوف من أن تسمي ما يرهقها.. أن تمنحه كياناً ووجوداً... وسيطرة!.

لا تريد أن تمنح مرضها السيطرة.. فهي تعلم ماله من قوة.. إنها تعلم ما حدث لأمها وخالتها.

- بايتون... كلميني.

- لا أراني أستطيع.

تقدم منها بسرعة وأمسك بذراعيها: «لِمَ لا؟ أنت تتكلمين مع أيّ شخص آخر فلماذا لا تستطيعين ذلك معي؟».

وعندما لم تجب، أمسك بذقنها ورفع وجهها إليه: «أنت تعرفينني يا بايتون. تعرفينني أكثر من أي شخص آخر».

- ربما هذه هي المشكلة.

اخترقت نظراته العنيفة عينيها حتى الأعماق: «فليسامحني الله، لكنك تجنينني».

وأحنى رأسه وهو يشتم بصوت خافت قبل أن يعانقها عناقاً حاراً عنيفاً حبس أنفاسها وأدار رأسها.

أغرورقت عيناها بالدموع فتشبثت بقميصه، شاعرة بقلبها يتمزق.

لا أحد يعانق بهذا الشكل سوى ماركو. لا أحد سواه يمنحها هذا الشعور.. وليسامحها الله فهي لم تنسه بعد.. ولن تنساه أبداً.

صدرت عنها صرخة بعد أن جرفتها المشاعر بعنف: الألم، اللذة، الاستنكار. ما الذي تفعله؟ آخر مرة عانقها فيها بهذا الشكل كانت في حدائق قصر «تروساردي». لقد فقدا تحكمهما في عواطفهما حينذاك، وهما يعرفان ما جرى منذ ذلك الحين.

كان لذلك نتائج، لطالما كان هناك نتائج...

لا تستطيع، ولا ينبغي، أن تسمح لذلك أن يحصل. فهذا هو الفردوس والجحيم معاً.

كانت تعلم أن تجاوبها مع ماركو غريزي، والتحكم في مشاعرها مستحيل.

لكنه سيكره نفسه لاحقاً. إنها تسمع التحذير، وتعلم أنه صوت الحقيقة. وجعلها صوت العقل تدفعه ليبتعد عنها.

كانت عيناه تتألقان ووجنتاه تتوهجان وهو يقول: «أنت».

كان صوته عميقاً ثخيناً. أرادت أن يستمر العناق لا أن تنهيه، لكنها كانت تعرف ماركو وتعرف استياءه من فقدان السيطرة على مشاعره..

إنها على صواب.. وأخذ نفساً مرتجفاً وشتم بمرارة محاولاً أن يتحكم في أنفاسه: «لماذا أفعل هذا؟ ماذا جرى لي؟»

- ماركو...

- لا، لا تقولي شيئاً وإلا جعلت الأمر أسوأ.

تفحصت ملامحه المتوترة والتواء فمه المرّ بينما تقدّم منها متوعداً، مشيراً إليها بإصبعه: «كدت أحطّم قلبها مرة.. كدت أسحقها! وهي مدهشة يا بايتون، إنها ليست مثلك، لا يمكنها أن تواجه نبذي لها».

- آسفة. لن يحصل هذا مرة أخرى.

- لا، لن يحصل، لأنني أريدك أن تذهبي. أريدك أن تجمعي أمتعتك وتأخذي طفلتيك وتذهبي الآن.

- آخذ طفلتيّ؟

- لأن هذا ما كنت تريدينه. ولهذا أخذتهما مني.

- ماركو.

كان غاضباً وهي تدرك ذلك، لكن أن يقسو على ابنتيه، فهذا غير معقول.

- لقد ذهبت إلى آخر العالم وجعلتني غريباً بالنسبة إليهما. هذه أنت يا بايتون!

عليها أن تبقى هادئة، وتتحكم في أعصابها: «أنا أحاول أن أصلح خطأي...».

فقاطعها بعنف: «وكيف؟ بتدمير علاقتي بماريلينا؟».

- ما من شيء تدمّر، يا ماركو. ما من شيء تغيّر. إنه مجرد عناق فلا تضخم الأمور...

- مجرد عناق؟ كيف تستطيعين أن تقولي هذا؟ أنا خاطب.. سأتزوج ماريلينا بعد شهرين، وتقولين إنه مجرد عناق؟

كان بالغ الشحوب وقد بدت الحدة البالغة في ملامحه وتابع بمرارة: «لعل العناق لا يعني لك شيئاً، لكنني وفيّ، مخلص. أنا لا أفعل شيئاً كهذا. أنا لا أتحرش بامرأة بينما أنا مرتبط بامرأة أخرى، لكنني فعلت هذا مرتين، ومعك أنت».

- أنا آسفة.

- ما السر فيك الذي يجعلني هكذا، يا بايتون؟

- لا أدري.

- وأنا أيضاً لا أدري، لكن هذا.. هذا..

وسكت فجأة، لاوياً شفتيه، مليئاً بالاشمئزاز من نفسه ثم أردف: «هذا خطأ، وأنا خجل من نفسي».

لم يساورها الشك في صدقه لحظة واحدة فقالت: «سأذهب إلى غرفتي لتبقى وحدك».

فقال: «هذا ليس ما طلبته منك. قلت لك أن تجمعي أمتعتك وترحلي».

- ماركو، أرجوك...

- لا . لقد أنهكني الكلام، أنا أشعر بالغثيان. أشعر بالغثيان لعودتنا إلى ما كنا عليه منذ ثلاث سنوات. لا أدري ما الذي تفعلينه بي. لا أفهم تأثيرك فيّ. يجب أن أتخلص منك. . . وبسرعة.

وتندى جبينه بالعرق وتوترت عضلات عنقه.

كانا يقفان متقاربين إلى حد شعرت معه بحرارة جسمه. كان مصراً على رحيلها، لكنها لا تستطيع ذلك. ولن تفعل! ليس الآن. . .

وشتم بصوت منخفض: «إذا لم ترحلي، فسأرحل أنا».

وابتعد عنها وكأنها شيء قذر: «أنا وماريلينا سنقيم في منزلي الريفي عند البحيرة حتى رحيلك».

حاولت بايتون أن تجد صوتها عندما وصل إلى باب الصالون الفيروزي اللون. . . وهتف بها صوت أن توقفه لأنها لا تستطيع أن تسمح له بالرحيل.

- أنت لست مضطراً إلى الرحيل.

توقف عند الباب لكنه لم يلتفت إليها.

وأخذت نفساً مرتجفاً: «أنا سأرحل. سأحزم أمتعتي على الفور».

لقد أرغمت نفسها على الكلام رغم التشوش الهائل الذي تشعر به، ورغم تعارض مشاعرها مع عقلها: «لكنني لن آخذ البنتين معي».

وعندما لفتت انتباهه، التفت إليها جزئياً فرأت جانب وجهه وهو يقول غاضباً: «ما هذا الكلام الفارغ؟».

- هذا ليس كلاماً فارغاً بل حقيقة. لا أستطيع أن آخذهما إلى البيت، لا أريدهما أن ترياني وأنا أخضع للعلاج الكيميائي.

لم يقل شيئاً. لم يتحرك. فعادت تقول: «أنا أعرف كيف يبدو

هذا العلاج يا ماركو. لن أعرّض البنتين لتلك المشاهد».

وقف جامداً مكانه: «العلاج الكيميائي؟».

خرج صوته خشناً، فبللت بايتون شفتيها، ثم تنفست بعمق. تباً لذلك! منذ دقيقة كانت تستمتع بالعناق والمشاعر، وإذا بها الآن تعود تمثالاً من الثلج. . . متجمدة المشاعر.

- أنا. . . أنا مصابة بالسرطان.

ورفعت بصرها إليه، والعجب يمتلكها لقدرتها على قول هذه الكلمات. لم يسبق أن تلفظت بها، فهي لم تخبر أحداً بعد.

استدار نحوها. . . أتراها قالت ما ظن أنه سمع؟

أخذ يستوعب ما قالت وهو يواجهها. لم تبد ثائرة الأعصاب بل بدت هادئة تماماً، وبشكل مدهش.

لا يمكن أن تكون قد قالت ما ظنها قالته. كان هذا جنوناً. لكن، وبجزء من الثانية، خطر له أنها قالت حقاً إنها مصابة بالسرطان.

- ماما!

جاءها الصوت من أعلى السلم ففتحت بايتون الباب وتوجهت إلى حيث كانت جايا واقفة: «أريد أن أذهب إلى الحمام. أنا مضطرة جداً لكنني خائفة».

استغرق إعادة الطفلة إلى النوم بعض الوقت، وعندما أغلقت بايتون باب غرفة الطفلتين، لم تجد ماركو في مكتبه.

وجدته في الخارج مستنداً إلى عمود في الفناء.

لم يلتفت، لكن لا بد أنه سمعها، إذ سألها وهو يحدّق إلى السماء: «هل هذا صحيح؟».

- نعم.

- هل أعدت الكشف الطبي مرة أخرى؟

- نعم، وأنا أنتظر النتائج. لكن التشخيص الأول جاء من الإخصائي الذي عالج أمي. كنت محظوظة لاكتشاف الأمر في بدايته. كلما كان اكتشافه مبكراً كلما كان حظي أوفر.

- ألم تخبري الطفلتين؟

فقالت بذعر: «لا. أنا أحبهما، يا ماركو. إنهما كل شيء بالنسبة إلي».

لم تتغير ملامحه: «إذن، كان لديك دوافع خفية حين جئت لرؤيتي. لم تأتِ لمجرد أن الطفلتان أصبحتا أكبر سناً ولأنهما تفتقداني. إنه لأجلك».

لم تنطق بكلمة فيما شتم هو بقوة، ثم هز رأسه وقال بصوت خافت: «اللعنة. من المفترض أن أكون أكثر ذكاء. ما كنت لتأتين أبداً لمجرد الزيارة. لقد أتيت بدافع اليأس فقط».

٦ - ستستمر الحياة

ابتلعت بايتون ريقها إزاء ردّ فعله. إنه على حق. ما كانت لتأتي لرؤيته لو لم تكن يائسة.

موت أمها تركها وحيدة، ولم يعد لديها من يساعدها في رعاية طفلتيها أثناء تلقيها العلاج.

ولهذا عادت إلى هنا... إلى منزل ماركو، إلى هذا التناقض المؤلم الحلو والمرّ معاً... كان هذا هو التصرف المناسب. لقد أرغمها القدر والظروف على القيام بما منعتها كبرياؤها من القيام به.

القدر والظروف يتطلبان التواضع، والخضوع لماركو.

عليها أن تطلب العون، إن لم يكن الرحمة.

وسألها بتوتر: «أنت تبتسمين».

- قليلاً. لأنك على صواب. وأنت تعرف كم أكره أن أكون مخطئة. لاسيّما إذا كان هذا يعني أنك مصيب.

قال من دون أن تنمّ ملامحه عن شيء: «كبرياء».

- الكبرياء مشكلتي دوماً. لعل نشأتي الفقيرة هي السبب، ربما لأن الكل يعلم أن أبي هجر أمي...

وسكتت فجأة ومذاق المرارة يملأ فمها.

بقي والداها شهوراً يتشاجران حتى بدا وكأن كل شيء يطير باستمرار في

غرفة الجلوس... الكتب، ومحافظ النقود، والأحذية ومفاتيح السيارة، ثم، ذات يوم توقف الصياح. لم يصفق أحد الباب قط بعد ذلك. الوالد رحل... وقد عرف الكل ذلك.

جلست بايتون على مقعد في الحديقة، وقالت ببطء: «لقد عرف الكل أنك تزوجتني لإشباع نزوة. كرهت ذلك، كرهت أولئك الناس كما أني أشفقت عليك».

- أشفقت عليّ؟

أومأت وقد تصلب جسدها.. ثم أرغمت نفسها على الاسترخاء وردّت: «أنت كنت ماركو دانجيلو، وبإمكانك أن تتزوج أي فتاة. كنت تنوي الزواج من أميرة. لكنك، وبدلاً من ذلك، تزوّجت مني».

- ولهذا عدت إلى بلدك.

فشعرت بوجهها يلتهب: «نعم، لكي أختبئ».

نظر إليها ماركو طويلاً قبل أن يسير بعيداً إلى آخر الفناء «كبرياء».

كرر ذلك ببطء، ونعومة وكأنه يتدرب على هذه الكلمة. لم يكن على ملامحه أي لمحة رقيقة.

قالت لتملأ الصمت المتوتر: ما يدعو إلى السخرية، أنه لم يبق لديّ أيّ كبرياء تمنعني من الكلام. إنني يائسة، وبحاجة إليك، إلى عونك».

حدق إليها بصمت، فشعرت بالغضب والإحباط يعودان إليه. لقد عاوده الشعور بأنه وقع في الشرك... أصبح في موقف حرج. وتابعت بلهفة وتوسل: «أرجوك، يا ماركو، ساعدني في جعل مرحلة الانتقال هذه ناجحة من أجلهما. ساعدني على أن أشعر بأنني قمت

بعمل واحد صائب في حياتي».

أجابها بحدة بعد أن لم يعد يحتمل كل هذا الكلام: «لقد قمت بعمل صائب في حياتك».

كيف تصاب بالسرطان وهي شابة؟ كما أن المرض لا يبدو عليها على الإطلاق! في الواقع، لم يرها من قبل بهذا التألق. جمالها اليوم حبس أنفاسه، كما فتنه جمال وجنتيها، وخطوط فكّها، وتقوّس حاجبيها. بدت وكأنها من صنع فنان. ورغم عدم اتفاقهما، ورغم المشاكل بينهما، إلا أنه لا يمكن أن يتمنى لها المرض أبداً... أبداً.

- آسفة يا ماركو.

راحت تنظر إليه، والقلق في عينيها الداكنتي الزرقة. إنهما عينا ليڤيا، التي تنظر إليه طلباً للاطمئنان والصفح وقد جرحه ذلك. هل تظن أنها بحاجة إلى صفح... ومنه هو من بين كل الناس؟؟.

لقد واجها مشاكل، ومشاكل كثيرة، لكن هذا لا يعني أنهما لم يعرفا أوقاتاً مرحة حلوة لم يعرفها مع أي امرأة أخرى. ليست من نسل ملكي، وليست منضبطة المشاعر مثل ماريلينا، لكنها دافئة ومرحة ومحمومة المشاعر ومولعة بالحياة.

كانت مثيرة بشكل لا يمكن نسيانه. انجذب إليها منذ البداية... وقد حدث هذه مرة أخرى هذه الليلة. الانجذاب والرغبة في امرأة وإحساس غريب تماماً عنه.

قالت: «عليك أن تعلم أنني لم أشأ أن يحدث هذا أبداً... لم أشأ أن أؤلم الطفلتين أو أن أسبب لك أي إزعاج».

لم تسكت... كلمات لا نهاية لها. لقد سمع ما يكفيه!

كلام لا ينتهي، ووقت ضائع.

ثلاث سنوات من الوقت الضائع.

وانتبهت بايتون إلى أنها الوحيدة التي تتكلم. لم ينطق ماركو بأيّ كلمة بل راح يحدّق إليها من دون أي تعبير على وجهه.

ليته يقول شيئاً... أي شيء! وهمست وقد اختنق صوتها بدموع لم تنهمر: «إذا كانتا سعيدتين فأنا سعيدة. لو عرفت أنهما تحبان أن تكونا معك فهذا يجعلني راضية وقادرة على العودة إلى موطني لأقوم بما عليّ القيام به».

- متى تنوين الرحيل؟

- حجزت لبعد أسبوع اعتباراً من يوم الثلاثاء.

- أي بعد تسعة أيام.

- نعم.

- ومتى يبدأ علاجك؟

- بعد حوالى أسبوع من ذلك. ثمة تفاصيل عليّ الاهتمام بها كإجراء مزيد من الإختبارات، وتحديد مواعيد المستشفى.

أخذ ماركو يتمشى نحو آخر الفناء وقد بدا غارقاً في أفكاره.

- أتريدين أن تبقى الطفلتان هنا معي أثناء علاجك؟

- أظن أن هذا هو الخيار الأفضل.

- ستخافان من البقاء وحدهما.

- ربما قليلاً. لكنني أظن أن بإمكاننا تخفيف ذلك إذا تعاونّا وكنا متوادّين وأدركت الطفلتان أنهما لن تُهملا.

أخذ يروح ويجيء ورأسه ينبض بالألم، ومرّت في ذهنه السنوات الأربع الأخيرة أشبه بفيلم سريع.

بايتون، الموظفة الأميركية الشابة والرائعة الجمال، في ثوب مضيء جريء في قصر «تروساردي». وتذكّر رقصه معها والنظر إلى بريق عينيها وهي تضحك.

www.rewity.com
marmoria5555

ذكرته الحديقة بماريلينا فتراجع مدركاً أنه نسي أن يتصل بها، كما نسي أن يمرّ بها بعد العشاء كما وعدها.

تباً لذلك!

استدار واتكأ على الجدار ثم نظر إلى بايتون: «أتشعرين بألم؟».

- لا.

- هذا حسن.

ودسّ يديه في جيبيه وثقل العالم يضغط عليه. بايتون... ماريلينا... الطفلتان... العمل. لا تأتيك الحياة بأجوبة سهلة... ما من اتجاه مباشر أو حلّ واضح بل على المرء أن يصغي إلى صوت ضميره، وأن يتبع نداء قلبه.

قال: «أعرف أن لديك خطة، وقد تصوّرت كيف تريدين أن تسير الأمور. ماذا تريدين؟ كيف يمكنني أن أساعدك؟».

أصغى إليها وسمع ما قالته، وعندما تعبت أخيراً من الكلام أومأ قائلاً: «حسن جداً».

لم يزر ماركو ماريلينا قط من دون إشعار مسبق ونادراً ما فعل ذلك قبل الظهر. ولكن إذا دهشت الأميرة لرؤيته في الساعة التاسعة صباحاً، فهي لم تظهر ذلك.

سألها وهو يقبل خدها: «صباح الخير يا حبيبتي. كيف حال رأسك اليوم؟».

وتفحصت نظراته وجهها الشاحب قبل أن تستقر على رضوض جبينها، قبل أن يضيف: «السواد حول عينك يبدو أسوأ».

فأجابت وهي تفسح له مجالاً ليجلس بقربها في صالونها الصغير: «إنها عادة تزداد قبحاً قبل أن تتحسن لكنني أستحق ما جرى لي لتجاهلي الضوء الأحمر. كنت غبية».

أحضرت الخادمة القهوة، فسألته ماريلينا وهي تتناول فنجانها: «كيف الحال في البيت؟».

- عظيم.

ونظر إليها فرآها تتأمله مقطبة الجبين ثم قالت بلطف: «ثمة خطب ما».

ما من طريقة سهلة ليخبرها. وقالت تحثه برقة: «نعم؟».

رأت في عينيه حذراً... وقلقاً.

- بايتون مريضة... إنها تعاني من السرطان.

اتسعت عينا ماريلينا وفغرت فمها: «سرطان؟».

شعر ماركو أنه أصاب في إخبارها إذ يجب أن تعرف أن عليه أن يساند بايتون قدر الإمكان. لكنه يعلم أن هذا صعب عليها بقدر ما هو صعب عليهم جميعاً.

وأضافت ماريلينا: «والطفلتان؟ هل تعلمان؟ ماذا ستفعلان؟».

أخذ يبحث في جيوبه عن سيكاره كالمجنون: «إنهما لا تعرفان بعد».

وأخذ يتمتم شاتماً، كارهاً القرار الصعب الذي عليه أن يتخذه وتابع يقول: «أنا أعرف ما تريده بايتون. إنها تريد أن تُبقي الطفلتين معي».

لم تتحرك ماريلينا. لم تطرف بعينها... بل نظرت إليه: «أن تبقيا معك؟ بايتون أيضاً».

- لا، البنتان فقط. بايتون تريدنا... أنا وأنت، أن نحتفظ بهما ريثما تعود للعلاج الكيميائي.

- آه... يا إلهي!

وقفت واستدارت إليه بقوامها الرشيق، فقال: «نعم».

نظرت إليه وهي تدعك صدغها: «وما رأيك أنت؟».

- أرى أنها مذعورة كلياً. إنها شغوف بهما للغاية، وهما عالمها كله، فعلا...

- لديها وظيفة يا ماركو. وظيفة جيدة جداً في تصميم الأزياء عند «كالفانتي».

- لكنها حصلت على إجازة، ولن تذهب إلى العمل. ليس في المرحلة الأولى من العلاج على الأقل. وهي لا تتصور نفسها ملقاة في السرير مريضة والبنتان تعانيان معها.

- لقد كانت صريحة معك، أليس كذلك؟

- إنها يائسة.

زفرت ماريلينا: وما الذي تقترحه أنت؟ ماذا عن العرس؟ وشهر العسل؟ وعنّا نحن؟».

- نحن ما زلنا نحن، وسنبقى نحن. قد نحتاج إلى إجراء بعض التغيير، ولكن الأمور ستسير على ما يرام. سنتزوج، ونسافر في شهر عسل... لكن هذا سيتأخر أسابيع أو أشهر عمّا قررناه.

رآها تعقد حاجبيها وتعض شفتها: «ولكن سيكون لدينا التوأمان».

- نعم.

- قبل شهر العسل أم بعده؟

تملكه الضيق: «وهل هذا مهم؟».

ورأى من ملامحها أنه مهم حقاً، فانتصب في جلسته قليلاً، شاعراً ببرودة غريبة في صدره: «ألا تريدين الطفلتين؟».

أجابت بعد لحظة: «إنهما طفلتان ظريفتان وحلوتان لكنني حلمت بأن

أكون عروساً قبل أن أكون أماً».

لم يقل شيئاً. فيما تابعت تقول بهدوء: «يسعدني أن أساعد بايتون قدر إمكاني، لكنني أظن أن علينا أن نكون حذرين. أظن أن علينا أن نتذكر أهدافنا. لطالما تحدّثنا عن إنشاء أسرة معاً، وعن أطفال من صلبنا».

لكن الطفلتين من صلبه أيضاً، وهما تحتلان قسماً كبيراً من قلبه ومن حياته. إنهما ابنتاه.

وضعت ماريلينا يدها على كمه: «يسعدني أن أكون زوجة أب. وليس لدي مشكلة في أن أراهما في العطل الأسبوعية والإجازات. ولكن أن أكون أماً طوال الوقت لأولاد ليسوا أولادي، وجنسيتهم أمريكية! هذا أمر غير عملي ولا معنى له».

عندئذ، أخرج مفاتيحه وقال: «عليّ أن أعود إلى البيت».

فقالت: «ماركو. أريد أن أتزوج، أن أكون زوجتك. إنها خطتنا، أليس كذلك؟».

لكن تلك الخطة، كما خطر له وهو يسير إلى سيارته، قد تكون غير مناسبة.

دخل ماركو إلى بيته فوجد بايتون وطفلتيها يتناولن الفطور.

كانت الستائر الثقيلة مرفوعة وأشعة شمس الصباح تتألق على المائدة المصقولة، وأزهار الأقحوان البهيجة في إناء من الماء. كان هذا غير مناسب، أزهار شبيهة بالأعشاب الطفيلية الضارة في إناء ماء على مائدته التي تعود إلى القرن السابع عشر. ومع ذلك، وبشكل ما، بدت مناسبة من وجهة نظر الرؤوس الثلاثة التي كانت جالسة إلى المائدة. ثلاثة رؤوس يغطيها شعر أحمر يميل إلى البني عند بايتون، وإلى السواد عند الطفلتين.

وعاودته كلمات ماريلينا وهو يقف عند العتبة: «ليسا ولديّ. إنهما

أميركيتان».

رفعت بايتون بصرها فرأته.. وتقوّس فمها، فيما بدا شيء من الاحمرار في عينيها الزرقاوين. ومع ذلك، كان في ملامحها من الدفء والحنان أكثر مما لدى عشرين امرأة معاً.

وخطر له وهو يدخل الغرفة الرسمية الفسيحة، أنه يحب أسرته الأميركية هذه. كان مسروراً لأن ابنتيه نصفهما أميركي ورثتاه عن أمهما بايتون. لعلها ليست كاملة، لكنه يودّها. ورغم كل ما حدث بينهما ما زال يودّها كثيراً.

لم تشعر بايتون قط بمثل التفاهة التي شعرت بها الآن وهي جالسة إلى هذه المائدة الفخمة، وقد ملأ ظهور ماركو المفاجيء الغرفة بالحيوية. لم يعد الفضاء الفسيح فارغاً، بل أصبح مليئاً بالحياة والنشاط.

سألها وهو يلقي بمفاتيحه جانباً: «من أين أتيت بهذه الأزهار؟».

- جمعتها البنتان من الطريق عندما خرجنا نتمشى هذا الصباح.

فرفع حاجبيه: «هل ذهبتما للتمشي؟».

- الحديقة العامة.

وألقت نظرة على الطفلتين اللتين بدتا فجأة منتبهتين تماماً، وتابعت: «ظننا أنك ذهبت إلى مكتبك».

- كان لدي مهمة قصيرة أنجزتها، ثم فكرت في أن أتناول الإفطار معكن أولاً.

وسحب كرسياً جلس عليه، فأقبلت الخادمة على الفور بكوب عصير وسلة خبز طازج.

أخذت بايتون تنظر إليه بمرح وهي تمسح الخبز بالزبدة، ثم قالت شاعرة

بحاجة إلى خرق الصمت: «الجوّ سيكون دافئاً اليوم.. ففكرت في أن نأخذ البنتين في نزهة».

قالت جايا: «سنذهب إلى «الكرنفال».

فقال ماركوك: «لم أكن أعلم أن ثمة «كرنفال» في المدينة».

فأومأت بايتون: «إنه المهرجان السنوي الذي يقام عند أقنية الملاحة. ولقد أخذتني إليه مرة منذ سنوات، فرأيت أن البنتين ستبتهجان بالعرض».

- هل حلّ شهر حزيران؟

فردّت ليڤيا: «نعم إنه الصيف. هل يمكنك أن تأتي معنا؟».

ابتسم للفتاتين. بدا مرتاحاً جداً بالنسبة إلى رجل لم ينم الليلة الماضية إلا قليلاً. وقال: «لدي رأي آخر. ماذا لو ذهبنا إلى أحب مكان لديّ في العالم؟».

فسألته جايا: «وأين هو ذلك المكان؟».

- إنه «كابري».

ونظر إلى بايتون، فتشابكت نظراتهما. وتابع بحزم وكأنه يتوقع منها أن تجادله: «سنذهب جميعاً وسنمضي أسبوعاً معاً. أظننا سنستمتع بالشمس والهواء النقي، وتغيير الجو».

صعدت إلى الطابق العلوي تجمع أمتعتها، محاولة أن تركز على مهمتها هذه، لكنها وجدت صعوبة في ذلك لاسيّما وأنّ ضميرها يخزها.

قال ماركو إنهم سيسافرون إلى نابولي حيث يمضون الليلة ثم ينتقلون إلى كابري إما بالقارب وإما بطائرة هيليكوبتر. لكن بايتون لا تستطيع أن تقبل بكل هذا، فليس صواباً أن يترك كل شيء من أجلها فقط.

بدا وكأنه قرأ أفكارها، إن وقف بجانبها وسألها: «هل شارفت على

الانتهاء؟».

- لا. إنني متزعجة للقيام بكل هذا في وقت واحد.

- لماذا؟ إنك منظمة، في العادة.

التفتت إليه وعيناها قلقتان: «لا أستطيع أن أطرد فكرة أن هذه ليست فكرة جيدة».

- ما هو غير الجيد فيها؟

هل عليه أن يتظاهر بالغباء الآن؟ وكبحت تنهدها المتعب: «الرحلة. أن نذهب نحن الأربعة إلى «كابري» معاً فأنا أعلم أنك مشغول للغاية. لماذا لا نتركنا في نابولي؟ بإمكاننا، أنا والطفلتان، أن نأخذ زورقاً إلى كابري».

- أترككن في نابولي؟ مستحيل. إنها رحلة عائلية، وسنذهب جميعاً. كما ستكونون بحاجة إليّ... أعني أنني أريد أن أكون هناك.

هذا هو ماركو الذي يشيع الثقة. الرجل الذي يعرف ما هو المهم.

تملكها الارتياح البالغ وشعرت بازدياد في طاقتها. عند عودتها من أميركا كان متصلباً معها، وبالغ الجفاء وعديم الاهتمام بها، لكن الجدار البارد انهار ليمنحها ومضة من الضوء والدفء.

لقد جاء من أجل الطفلتين. وهو سيفعل المناسب للطفلتين، ولهذا عليها ألاّ تقلق كثيراً عليهما، لأن الأمور ستكون على ما يرام.

- ماذا عن مجموعة الأزياء؟

- إنها غير هامة.

- لكن هذا غير صحيح. مجموعة الربيع هي لب العمل. لن أموت غداً، يا ماركو. لا يمكنك أن تترك كل شيء. عدني بأن تكمل المجموعة حتى النهاية.

نظر إليها: «هل هذا يهمك كثيراً؟».

- لديك موهبة وخيال خصب وأنا أكره أن أقف عائقاً بينك وبين عملك.

قطب حاجبيه ونظر إليها بإمعان. بدا جوّ الغرفة مشحوناً ولم تستطع احتمال هذا التوتر.

وأخيراً، قال: «لا أفهمك. ولكن، متى فهمتك على أيّ حال؟».

سار إلى النافذة ينظر منها لكن وجهه كان جامداً من دون تعبير.

- إذا كان الأمر يمنحك السكينة فسأستمر في العمل في المجموعة عبر الهاتف. وإذا اقتضى الأمر فسأستقل الطائرة من أجل القياس الأخير.

- شكراً.

التفت يواجهها وعدم التصديق على وجهه: «لماذا تشكرينني؟».

- لأنك كنت طيباً وبالغ العطف.

فشتم بصوت خافت: «العطف؟ أنا لست عطوفاً أبداً. وما فعلته ليس عطفاً بل ضرورة. إنه الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله».

ومع ذلك، ما زالت شاكرة راضية أكثر مما يدرك. لقد أراحها أن تعلم أن ماركو تفهّم وقبل التحدّي. ستكون البنتان بحاجة إلى الكثير، ستحتاجان إلى القوة والشجاعة وإلى قدر غير محدود من المحبة.

قالت وهي تنتقي كلماتها: «هذا سيغير أمور كثيرة».

- أنا أدرك هذا.

- وماريلينا...

- إنها تعلم.

- هل هي راضية عن اصطحابك لنا؟

- إنها بأحسن حال، يا بايتون.

انقبض قلبها بمرارة لم تعرف مثلها: «أنا آسفة، يا ماركو..».

- لا تعتذري فأنت لم ترغبي في ذلك ولم تطلبيه. أنا لا أريدك أبداً أن تعتذري على شيء خارج عن سيطرتك.

- لكن هذا يؤثر فيك.

- حسناً، فليكن! أنا رجل، يا بايتون ولست طفلاً. إنني أتوقع الصعوبات في الحياة، وأتقبل تحدياتها، وما فيها من خيبة أمل.

وتقابلت أعينهما، فتوهجت عيناه بشعور حار: «لكنني لا أقبل الهزيمة. وأنت ستهزمين هذا، يا بايتون، وستستمر الحياة».

٧ - الامبراطور الرائع

نابولي رائعة في أي وقت من النهار، وكانت بايتون محظوظة لرؤيتها عند العصر، لتراها تعود فتنتعش في الليل.

عندما وصلوا إلى نابولي دخلوا إلى جناح أنيق في فندق «إكسلسيور» الفخم الذي يطلّ على الخليج المتألق.

بعد تغيير ملابسهم وارتدائهم ملابس وأحذية مريحة، خرجوا يستكشفون نابولي القديمة وشوارعها كالسياح الآخرين.

كان ماركو شغوفاً بمدينة نابولي، ويحب المباهاة بها، لأنّ أمه الراحلة نابولية الأصل، وقد أمضى في المدينة كثيراً من سنوات عمره الأولى.

وضعا الطفلتين في عربتي أطفال، وأخذا يجولان بين الكنائس والكاتدرائيات الشهيرة قبل أن يذهبا لرؤية «كاستل نيوفو»، وهو حصن ضخم من القرن الثالث عشر.

لا عجب في أنهم أطلقوا على نابولي لقب «أجمل تيجان أيطاليا»، هذا ما خطر لبايتون وهم يغادرون غرف قصر «بالازوريل» الباردة المعتمة إلى أشعة الشمس المتألقة الرائعة.

لكن الجولة أنهكت الطفلتين، حتى أن بايتون تمنت أن تقوم بقيلولة قبل أن يتجهوا لتناول العشاء.

كان ماركو قد حجز جناحاً بغرفتي نوم. وعندما عادوا إلى الفندق، وضعت بايتون الطفلتين في غرفة لترتاحا قبل أن تعود إلى

غرفة الجلوس.

قال ماركو: «أعلم أنك تودّين أن ترتاحي، أنت أيضاً. خذي الغرفة الثانية وسأنام أنا هنا الليلة».

- لن أدعك تنام على الأريكة بينما أنت تدفع إيجار الغرف.

فقال بفروغ صبر: «النقود لا تهمني. لماذا تفعلين هذا؟ لماذا تأتين على ذكر النقود؟».

وتمتم بكلام عكس ضيقه ثم فتح دفتر عناوينه وكأنه يريد أن يتصل لكنه لم يتناول الهاتف بل تابع يقول: «قد يشتري المال أشياء كثيرة لكنه لا يشتري السعادة أو سكينة النفس، وهذا ما نحن بأمسّ الحاجة إليه الآن. الهدوء والسكينة، وأسبوع راحة مع طفلتينا».

عندما يركّز ماركو اهتمامه على شيء، لا أحد يستطيع إرغامه على فعل شيء آخر. هذا هو ماركو الذي آمنت ووثقت به: «أوافقك على ذلك».

وبعد أن هدأ قليلاً، عاد يجلس إلى المكتب وهو يسألها: «هل فكرت متى ستخبرين البنتين بما يحدث؟».

- لا.

- لا يمكنك أن تتركيهما جاهلتين. هذا ليس صواباً.. أو مناسباً.

- حسناً، لن أخبرهما أنني مريضة، وأن مرضي هو المرض نفسه الذي أصاب أمي وخالتي.. فهما يعلمان ما حدث لهما. لا أريدهما أن تقلقا عليّ.

- لكنهما ستقلقان فيما بعد على كل حال.

- ولهذا أريدك أن تشعرهما بمزيد من الحب. أنا أدرك أن مشاغلك كثيرة حالياً، وأدرك أنني أضيف عبئاً آخر..

فقاطعها بعنف: «يا إلهي، يا بايتون. أتريدينني أن أخنقك؟ أي غول عديم الشعور تظنينني؟ الطفلتان ليستا عبئاً، ولم تكونا عبئاً قط. أنت أيضاً لم تكوني كذلك».

تبع قوله هذا صمت عميق، وشعرت هي بشيء من الدوار وكأنها لم تفهم تماماً ما يعنيه.

وعاد يقول عابساً: «مسألة الزواج كلها.. أعني زواجنا، لم تكن مأساة عظمى كما يبدو أنك تظنينها. فأنا لم أعتبر قط الزواج بك أمراً سلبياً. لقد أصبح صعباً في ما بعد، ولكن ليس في البداية. وما كنت تزوجتك لو أنّ هذه الفكرة كريهة بالنسبة إليّ».

– ولكن...

– ولكن لا شيء. ما كنت لأتزوّجك لو لم أكنّ لك المشاعر. ما كنت لأتزوجك لإشباع رغبة عابرة فقط.

مشاعر؟ وطرفت بايتون بعينيها، لا تدري هل تبكي أم تضحك. كان يكنّ لها المشاعر حين تزوجها! هل كانت مشاعر حسنة أم سيئة؟ وإذا كانت حسنة، فلماذا لم يستمر زواجهما؟

وأضاف بمزيد من الهدوء: «رعايتك للطفلتين كانت ممتازة. ستفتقدانك إذا تركتهما في ميلانو».

اغرورقت عيناها بالدموع: «وأنا سأفتقدهما أيضاً. لكنني أظن أنه من الأفضل ألاّ ترياني إذا لم أكن في أفضل حالاتي. أظن أنه من الأفضل ألاّ ترياني وأنا أعاني من الآثار الجانبية».

بقي لحظة طويلة صامتاً. دعك فكّه ثم هز رأسه قبل أن ينهض فجأة: «سأرجىء الزواج».

– لا!

– لن أتزوج وأذهب في شهر عسل الآن وطفلتاي بحاجة إليّ.

ماريلينا امرأة راشدة وتتفهم الأمور، أما الأطفال فلا. والطفلتان هما من يقلقني أمرهما. وعلى ضوء مرضك، كل المشكلات الأخرى تصبح تافهة.

– يمكنك، على الأقل، أن تتناقش مع ماريلينا قبل أن تتخذ قرارك هذا.

– سواء فعلت ذلك أم لا، فقد اتخذت قراري. للبنتين الأولوية بالنسبة إليّ. إنهما قبل أيّ شيء يا بايتون.

فقالت بشبه ابتسامة: «من المؤكد أنك كنت لتصبح إمبراطوراً رائعاً في روما القديمة».

– أعلم هذا.

وابتسم هو أيضاً، فظهرت بعض التجاعيد حول فمه. كان يسخر من نفسه، وعندما يفعل ماركو هذا يصبح في قمة سحره: «والآن، نامي قليلاً. يجب أن ترتاحي أثناء نوم البنتين. ولا تقلقي عليّ هنا، فأنا بأحسن حال. على كل حال، لدي عمل كثير أقوم به».

أغلقت بايتون باب غرفة النوم خلفها، ثم أخذت تتمطى على السرير المزدوج الفسيح. كان الألم في رأسها، وقلبها، إذ شعرت وكأنها تحترق. محاولتها الحفاظ على مشاعرها نحو ماركو بسيطة عادية فيما هي قربه، أخذت تزداد صعوبة، بصعوبة تركه ابنتيها خلفها. وسيصبح الأمر أسهل عندما تبتعد عنه.

ما زال لماركو ذلك التأثير الجنوني فيها ما جعلها تزداد لهفة ورغبة وحنيناً.

وما أفظع هذه اللعبة إذ عليها أن تخفي مشاعرها وتكبحها حتى ينهك قلبها الألم.

لقد وصلت إلى ميلانو منذ أقل من أسبوع، وها هي الآن

مستنزفة. تظاهرها بعدم المبالاة يزداد صعوبة، وكذلك تجاهلها لمشاعرها. كرهت اضطرارها إلى إنكار حبها له.

كيف تتجاهل تسارع خفقات قلبها، وكيف تخمد آمالها؟ كيف تتصرف وكأن وجود امرأة أخرى في حياة ماركو لا يهمها؟ فهذا يهمها كثيراً. إنها تحب ماركو لكنها لم تنس ما عانته من آلام بعد فشل زواجهما.

وأخيراً، لم تستطع بايتون أن تنام، فتركت غرفة النوم لتجلس مع ماركو على الشرفة الصغيرة.

كانت الشمس تميل إلى الغروب في شفق رائع من اللونين الأحمر والقرمزي.

وقفا على الشرفة وأخذا ينظران إلى غروب الشمس. وفكرت في أنّ هذه اللحظة نادرة من السكينة والهدوء. منذ دهور لم يكتنفها شعور كهذا بالسكينة. منذ زمن طويل والقلق يتملّكها.

قالت وهي تقف بجانب ماركو: «هذا جميل».

فقال: «نعم، إنه كذلك».

وعندما تلاشى الشفق، تملكها الأسف. لم يعد لديها وقت كثير تمضيه مع الطفلتين. ستغادر إيطاليا بعد أسبوع، وعلى البنتين أن تعتادا على العيش من دونها. ولكن هل عليها ذلك هي أيضاً؟

هل يمكنها أن تواجه بيتاً خالياً يوماً بعد يوم؟

لن تجد من يزورها. ولن تستيقظ من أجل أحد.. ما من أحد تمنحه قبلة قبل النوم.

- كنت أفكر في حياتي مؤخراً، في الأخطاء التي ارتكبتها. لقد ارتكبت أخطاءً كثيرة.

- ومن منا لا يخطىء؟

- أنا لا أتحدث عن العمل.

فتوتر فكه: «ولا أنا».

وصمت لحظة ثم أردف: «أتريدين أن نتحدث عن الأخطاء؟ ما كان ينبغي أن أسمح لك بالذهاب إلى أميركا مع الطفلتين. كان هذا أسوأ ما قمت به، فقد افتقدتهما إلى حدّ هائل، وزياراتي لك جعلت الأمر أسوأ. في كل مرة أصعد فيها إلى الطائرة لأعود إلى الوطن، أعجز عن التنفس. كنت أشعر... وكأنني أدفن حياً».

- ولهذا انقطعت زياراتك.

- رأيت أنه من الأفضل أن أبقى بعيداً، على أن أودّعهما مرة بعد مرة. لكن عملي هذا لم يكن صواباً. لقد قصّرت نحوهما.. ونحوك. أنا آسف.

عاوده هذا الاعتذار مراراً بعد أن دخلا ليرتديا ملابسهما ويوقظا الطفلتين استعداداً للعشاء. لبست بايتون بنطلوناً أبيض حريرياً وبلوزة حريرية بلون الفيروز، ثم استقلوا المصعد إلى المطعم الواقع على سطح الفندق. ورغم وصولهم متأخرين ومن دون حجز مسبق، إلاّ أنّ رئيس الندل عرف ماركو، فخصص لهم مكاناً جيداً بجانب النافذة. وكان مطعم «لاتيرازا» يشرف على مناظر رائعة للمدينة والمرفأ، والجبل.

استمتعت الطفلتان برؤية السفن تدخل إلى المرفأ وتغادره.

فجأة مدّ ماركو يده وغطى بها يدها: «ما نفعله الآن هو الصواب. أعني أن نذهب إلى «كابري» معاً، واضعين اختلافاتنا جانباً. إذا كان لديك أي شك، فانظري إلى طفلتينا».

كانت تفكر في الأمر نفسه فارتجفت. لم تؤثر فيها لمسته فقط بل كلماته، فقد بدا متفهماً أكثر مما توقعت.

لكن عندما رفع يدها إلى شفتيه، شعرت ببهجة لا علاقة لها بشعور الأمومة وغريزة الدفاع عن النفس.

فهي ما زالت امرأة رغم كل شيء، ولم تعرف أيّ رجل طوال العامين الماضيين. ما من رجل لمسها أو أحبها. لم تكن تريد سوى ماركو، لكنه لم يكن موجوداً.

وتقابلت أعينهما: «كابري» هي بالضبط ما أنت بحاجة إليه».

وتأملها بينما تابع يقول: «وقد تكون ما أحتاجه أنا أيضاً».

كانت قد أمضت وقتاً طويلاً تصارع فيه مشاعرها وتكبح رغباتها، وإذا بماركو يهدم ذلك في لحظة واحدة.

حدّثت نفسها بأن تبتعد عنه حالاً، إذ أن المشاعر التي اكتسحت كيانها، هددت بهدم آخر أثر للمقاومة لديها...

في الصباح، وفيما كانوا على وشك مغادرة الفندق، رن هاتف ماركو الخلوي.

قال وهو يجيب: «إنها ماريلينا».

إبتعد قليلاً بينما وقفت بايتون مع الطفلتين وحقائبهم قرب باب الردهة في انتظار سيارة الأجرة التي ستحملهم إلى المرفأ.

لم تسمع بايتون الحديث، إذ لم تشأ ذلك، فشغلت نفسها بعدّ السيارات الحمراء مع ابنتيها لتصرف اهتمامها عن ماركو.

ألقى ماركو نظرة على بايتون من تحت أهدابه وهو يصغي إلى وصف ماريلينا للحفلة التي فاته حضورها الليلة السابقة. قالت الأميرة: «سأل عنك الكل. لقد افتقدوك».

فأجاب وهو يعجب للضيق الذي تملكه: «سأعود بعد أسبوع».

اعتاد هو وماريلينا أن يحضرا المناسبات الاجتماعية معاً. وكانا يمثلان قوة وسلطاناً في مجتمعهما الراقي.

- كيف يسير الحال؟ كيف كانت ليلتك في نابولي؟

- الطفلتان أحبتا نابولي.

أجابها وهو ينظر إلى بايتون وهي تجلس القرفصاء بجانب الطفلتين عند النافذة:

- لقد تعشينا في «لاتيرازا».

- هل أخذت الطفلتين إلى «لاتيرازا» ؟ لكنه يا حبيبي، ليس مطعماً للأولاد.

- لقد تصرفتا بشكل رائع.

رأى سيارة الأجرة تتوقف أمام باب الفندق والبواب يشير إلى بايتون، فأضاف: «علي أن أذهب فقد وصلت سيارة الأجرة. لا أريد أن يفوتني المركب الذاهب إلى «كابري».

- لا بأس يا حبيبي. اتصل بي قريباً.

نقلتهم السيارة إلى الخليج فوصلوا إلى المرفأ في الوقت المناسب حيث حملهم المركب إلى «كابري». قال ماركو إن الرحلة لا تستغرق سوى أربعين دقيقة وإن مئات السياح يقومون بها يومياً، أثناء الصيف.

أخذت بايتون تنظر إلى التلال الشديدة الانحدار، ومنظر المنازل الباهتة الألوان. كان مشهد نابولي من فوق الماء أكثر سحراً.

عندما أصبحت نابولي بعيدة عادت بايتون بأفكارها إلى حلم كان يراودها وهي في المدرسة الثانوية، حلم السفر إلى إيطاليا لترى الفن العظيم وكاتدرائيات روما القديمة. أرادت أن تستأجر شقة في ميلانو وتتعلم تصميم الأزياء عند كبار المصممين. كانت تتشوق إلى فنجان قهوة وهي تنظر إلى شروق الشمس فوق البلاد التي أعطى فنانوها وكبار علمائها الحضارة للعالم.

وبعد ساعة، توقف المركب في حوض السفن. كانت حرارة الشمس مرتفعة. وفجأة، مال ماركو إلى الأمام ولامس جبين بايتون، بينما شبك يده الأخرى بشعرها الجعد المسترسل على كتفيها، وقال: «تبدين سعيدة. ما أجمل أن أراك مبتسمة».

احمرّ وجهها وقد سرت السخونة في جسدها.

استطاعت أن تشعر به، وقد بدا كل هذا غير واقعي. من المضحك كيف يتغير كل شيء من دون أن يتغير أي شيء! لم يكن ماركو رجلها.

حتى لو تأجل العرس، ما زال رجل امرأة أخرى.

انزلقت يد ماركو من شعرها فتفادتها وهربت بسرعة. لقد مضى سنتان على طلاقهما. وقد مرت سنتان كان عليها خلالهما أن تتعلم كيف تتقبل الواقع!

فلماذا لم تستطع أن تتقبل فكرة أن مستقبلها لم يعد مع ماركو؟ ولماذا ما زال ذلك الألم، وذلك الشوق، يتملكانها؟

سألها: «ماذا حدث؟».

- لا شيء.

تباً! لا تستطيع أن تستعيد تلك المشاعر كلها مرة أخرى. لقد جاهدت بعنف لكي تكبح مشاعرها... ورغبتها. ومع ذلك، قربها منه جعلها تشعر بالكثير، وما شعرت به أفزعها.

ليس هناك سوى رجل واحد لها. ماركو وحده، ومع ذلك لا تستطيع الحصول عليه.

لم يكن بيته في «كابري» بالضبط، بل في الناحية الأخرى من الجبل الشاهق. كان مبنياً على منحدر فوق البحر، تحيط به حدائق أنيقة، وتتدلى الزهور من شرفاته كما تحيط بالبركة.

أخذهن في جولة حاملاً ليفيا على ذراع وجايا على الأخرى. كان المنزل ملكاً لأمه وجديه من قبلها.

في غرفة بايتون، فتح الباب المؤدي إلى الشرفة وخرج إلى أشعة الشمس. أخذ نفساً عميقاً ثم زفره فأخذت البنتان تضحكان. قال: «استنشقن الهواء هنا واشعرن بأشعة الشمس. أليس هذا رائعاً؟».

لم تستطع بايتون أن تبعد نظراتها عنه. كان رائعاً... رائعاً وفظيعاً، ولم تعرف كيف ستنجو من قضاء سبعة أيام معه.

كانت البنتان هنا، لكنهما، وبشكل ما، تجعلان الأمر أصعب. إنهما تذكّرانها على الدوام، بأنها وماركو كانا يعيشان معاً، متحابين، ذات يوم.

أغمضت عينيها. إنها لا تريد أن تفكر بالحب، لا تريد أن تفكر بروعته مع ماركو.

وبعد لحظة، ابتسمت والتفتت إلى ماركو والبنتين، محاولة جهدها أن تخفي ألمها: «هذا رائع».

أنزل ماركو البنتين على الأرض: «هذه الجزيرة سحرية، إن لديها قدرة على الشفاء».

فخفق قلبها: «هل بما يكفي لصنع معجزة؟».

تشابكت نظراتهما لحظة: «من دون شك».

٨ - زيارة إلى الجنة

أمضوا أول يومين كالسياح، يزورون الأماكن الشعبية مع مجموعات من الأميركيين والأوروبيين الذين جاؤوا على المركب لقضاء النهار.

ولكن في النهاية، تعب ماركو من حشود السياح واقترح نزهة بعيداً عن جلبة المتسوّقين في المدينة.

ابتهجت الطفلتان بركوب الباص الذي سار بهم حتى أشار ماركو للسائق بالتوقّف فوق ڤيلا «داميكوتا». وكانت هذه الڤيلا ذات يوم ڤيلا ملوكية في «كابري» لكنها الآن لم تعد سوى أطلال تطل على مشهد رائع للبحر وتمثل بقعة جميلة للغاية للنزهات.

فرشت بايتون البطانيات حيث جلسوا يأكلون الشطائر ويشربون عصير الليمون قبل أن تسعى الطفلتان لاكتشاف المكان.

تبعت بايتون ابنتيها ثم جلست على ما تبقّى من جدار حجري فجلس ماركو بجانبها.

قال وهو يتكىء إلى الخلف: «ما كنا لنتمنى أجمل من هذا النهار».

التفتت إليه باسمة. كان يرتدي قميصاً كحلياً ثنى كميه إلى أعلى فبدا مظهره عفوياً ومثيراً تماماً. وقالت: «أظن أن الجنة بهذا الشكل».

وتلعثمت فجأة وبدا عليها الخجل.

عادت تنظر إلى الطفلتين الغافلتين عما حولهما، وقالت: «الطفلتان في غاية السعادة هنا. عدني بأن تحضرهما إلى هنا مرة أخرى».

- طبعاً. «كابري» هي وطني الثاني. بيتي هنا بقي ملكاً لأسرة أمي أجيالاً.

ومال إلى الأمام يعدل وضعية قبعتها لتقي وجهها من الشمس: «أنت لا تتحدثين كثيراً عن أمك، لماذا؟».

- الأمر صعب.

كانت شاكرة لحافة قبعة القش. كانت رقته وحمايته لها جديدين عليها، فهي لم تكن معتادة على ماركو حنوناً.

وعاد يقول: «لقد أصيبت بالسرطان هي أيضاً، أليس كذلك؟».

لم يكن الحديث عن أمها أسهل من التفكير في مستقبلها لكن ماركو بحاجة إلى أن يعرف هذه الأمور. شخص ما يجب أن يخبر الطفلتين عن أسرة أمهما. قالت ببساطة: «كنت شغوفة بأمي. كنا متحابين جداً. لقد عشنا وحدنا. كان أبي قد تركنا وتزوج مرة أخرى وأنشأ أسرة ثانية في مكان ما».

- ألم يتصل بك أبوك بعد رحيله؟

- أرسل إلينا بطاقة معايدة يخبرنا فيها أنه سيتزوج.

مدّ يده يدس خصلة من شعرها تحت القبعة وراء أذنها: «لديّ شعور بأن أمك كانت فخورة بك. وأتصور أنك تشبينها كثيراً».

أحبت شعورها بيده على أذنها وخدها. كانت تحب لمسته لها، لكنه لم يكن يفعل هذا كثيراً.

والأمر لا يتعلق بالجلد فقط.. بل بالقلب!

وقف وأمسك بيدها يشدّها لتقف: «أشعر بالأسف الآن لأنني لم

أتعرف إلى أمك. أظنني كنت سأحبها».

- كان الواحد منكما ليجن بالآخر.

- تماماً كما جننتني أنت.

ونظر إليها وقد التمعت عيناه فقالت: «أنا لم أجننك قط. أنت لم تشعر حتى بوجودي».

- هذا غير صحيح.

وشعرت بالتوتر يعود بينهما.

- أنا مسرور بعودتك مع الطفلتين.

قال هذا بصوت أجش وهو يحني رأسه ويلامس خدها.

تسارع الدم في عروقها كما تسارعت خفقات قلبها. وشعرت بموجة من المشاعر وبالطاقة التي لفّتها معاً.

وكان هذا أكثر مما تستطيع أن تحتمل.

قالت: «لا يمكننا أن نفعل هذا».

ووضعت يدها على صدره تدفعه عنها، لكن عندما احتكت يدها بصدره، لم تعد تستطيع الحراك.. أو الهرب. شعرت به قوياً صلباً. بدا مثل ماركو الذي أحبته، ماركو الذي افتقدته.

همست وحلقها يجف: «ماريلينا. لا تنسَ ماريلينا».

رفع ذقنها وحدّق إلى عينيها: «حسناً. سأنهي علاقتي بها إذن».

انتفض قلبها وأخذت ترتجف وقد وهنت ساقاها: «لا يمكنك أن تفعل هذا. لا يمكنك أن تفعل هذا مرة أخرى... ليس...».

أحنى رأسه وأسكت احتجاجها بعناق حقيقي.

تصلبت وأخذت تقاومه غريزياً. لكن قربه أرسل شرراً من المشاعر في كيانها. صعب عليها أن تنكر تأثرها به. أنفاسه، قربه، بشرته... كل هذا كان مألوفاً لديها للغاية... ومع ذلك غريباً.

رائعاً ومع ذلك يحطم القلب.

لكن ماركو لا يخصها. وهذا العناق ككل شيء آخر بينهما، مسروق. وما أسرع ما سيرحل، عائداً إلى ميلانو، فتعود وحدها مرة أخرى، تجاهد في أن تجمع حطام حياتها.

حاولت أن تكبح مشاعرها، وتحدّ من تجاوبها، لكنه أدرك ما تفعله فصمم على أن يثبت أن عواطفها أقوى من منطقها.

تنفّست بحدة. عليهما أن يتحكما أكثر بمشاعرهما.

قالت بصوت خافت: «كفى.. كفى، يا ماركو. هذا خطأ. أنت تعلم هذا وأنا أيضاً. لا يمكننا أن نفعل هذا».

رفع رأسه ونظر إليها: «إذن، ربما حان الوقت لنجري بعض التغيير».

فدفعته في صدره: «لا. أنا لم أحضر لأتدخل، ولا أريد أن أتدخل. لقد فعلنا ذلك من قبل. جربناه، لكنه لم ينجح. هل نسيت؟ لقد طلقتني يا ماركو».

- لم أفعل إلاّ لأنك طلبت مني ذلك.

لا يمكنها أن تفعل هذا. إنها لا تريد أن تفعل هذا. وأجابت: «لقد طلبت منك أن تطلقني إذا كنت لا تستطيع أن تحبني، فقلت لي.. قلت لي إني كنت غلطة... متعة دامت ليلة واحدة، أم أنك نسيت هذا أيضاً؟».

وابتلعت ريقها محاولة تمالك نفسها... والتمسّك بكبريائها.

لم ينسَ طبعاً هذه الكلمات فقد كانت قاسية: «لقد كذبت عليك».

لقد تعمّد أن يكون قاسياً. تعاستها جعلته مجنوناً. ما من شيء فعله كان مناسباً أو صواباً.

وكرر قوله إنه كذب عليها، تماماً كما أدرك أنه كان يكذب على نفسه منذ ذلك الحين.

- أنت لم تكوني متعة لليلة واحدة... كما أننا... نحن الإثنين، لم نكن غلطة.

- لا.

- نعم. كان أمرنا لا بدّ منه. لقد شاء لنا القدر ذلك.

كان ماركو يأمل في أن يقوم بعمله من «كابري» ولكن ثمة أمور كثيرة تتطلب وجوده شخصياً. كان بإمكانه أن يطلب إرسال عيّنات من النسيج له لكنهم لا يستطيعون إجراء القياسات أو المقابلات النهائية مع عارضات الأزياء من دون موافقته.

وهكذا، قال لها في الصباح التالي: «أنا ذاهب إلى ميلانو. سآخذ الطائرة من نابولي وربما لن أتمكن من العودة إلا عصر الغد».

كان الوقت قرابة الظهر عندما وصل إلى ميلانو، لكن، وبدلاً من أن يتوجّه رأساً إلى حيث صالة العرض طلب من السائق أن يأخذه إلى منزل ماريلينا.

رحّبت به ماريلينا بحرارة: «جميل أن أراك. لقد افتقدتك».

لكنه لم يفتقدها. في الواقع لم يفكر فيها قبل أن تأتي بايتون على ذكرها.

كان يقوم بالأمر المناسب في فسخ خطبته فقلبه لم يحب سوى امرأة واحدة.

وهي تلك المرأة الحمراء الشعر التي في «كابري».

انتظر ماركو ماريلينا حتى تجلس، فجلست هذه برشاقة. إنها رشيقة وأنيقة على الدوام لكن حركاتها المتمهلة أثارت أعصابه. إنه يعلم من دون أي شك أن علاقتهما انتهت. ماريلينا امرأة جميلة

للغاية، لكنها ليست بالمرأة المناسبة له. كان يشعر في السنتين الماضيتين أنه يسير في الحياة كما يسير النائم، وإذا به يستيقظ فجأة.

الحمد لله لأن بايتون جاءت في الوقت المناسب. الحمد لله لأنه لم يتزوج ماريلينا. قال: «علينا أن نتحدث».

لم يحب ماريلينا قط. كان يحب فكرة أن أميرة حسناء مرغوبة تريده لكنه لم يحبها قط، أو على الأقل ليس بمقدار ما أحب بايتون.

وها هو ذا يخبرها بذلك الآن فكاد تمالكها لنفسها أن ينهار: «قلت إنها لن تفصل بيننا، وأصرّيت على أنها لن تدمّر عرسنا. ماركو، لا تدعها تفعل ذلك».

لم ترفع صوتها قط من قبل، ولم تفقد أعصابها لكنها بدت أقرب إلى الانهيار الآن.

- ليست هي من...

- كيف تقول هذا؟ كانت الأمور بأحسن حال قبل أن تأتي هي.

فتنهد وأغمض عينيه: «لم تكن الأمور بأحسن حال. كنا نتظاهر بذلك».

ثار غضبها: «لم أكن أفعل. أنا أحبك وأعرف أننا سنمضي معاً حياة رائعة. نحن متماثلان ونفهم بعضنا البعض، ومتلائمان تماماً. كيف تنسى كل ما كان بيننا في السنتين الماضيتين؟».

- لقد أمضينا أوقاتاً ممتعة، لكنها غير كافية.

كان يعلم أنهما يحبان الأوبرا، ورحلات التسوّق إلى باريس، والهرب إلى أوروبا لتناول العشاء مع بعض أصدقائهما.

- كيف يمكنك أن تقول هذا؟

- لأن هذا صحيح. عليّ أن أفكر في البنتين. قلت إنك لن تتحملي مسؤوليتهما أثناء علاج بايتون.

وقفت ماريلينا وسارت إلى آخر الصالون حيث أشاحت بوجهها لتمسح آثار الدموع: «ستندم على قرارك لاسيّما عندما تعلم أنها تخدعك مرة أخرى».

- بايتون ليست كذلك...

فالتفتت تواجهه والألم يلوي وجهها: «أنت أحمق للغاية. بل إنها كذلك. محتالة هدّامة. لقد جاءت فقط لأنك ستتزوج مرة أخرى. جاءت لتفرق بيننا، وقد نجحت في إعادتك إلى قبضتها».

وأظلم وجه الأميرة فجأة وازداد شحوباً: «لم يحصل... لم يحصل بينكما أيّ علاقة حميمة.. أليس كذلك؟».

- لا.

- وهل يفترض بي أن أصدقك؟

جرحه سؤالها. لم يرها قط بهذا الشكل. لم يرها قط متكدرة من قبل. وأجاب بهدوء: «نعم. إعتني بنفسك، يا ماريلينا. وأرجو أن نبقى صديقين».

بعد أن غادر ماركو «كابري» إلى ميلانو ذلك الصباح، أمضت بايتون والطفلتان النهار عند بركة الڤيلا الأنيقة والمحاطة بالأزهار. سبحن وتغدين في الشرفة، ثم لعبن مرة أخرى في ناحية البركة المظللة، قبل أن يأخذن غفوة طويلة بعد الظهر. كان نهاراً مريحاً للغاية. ولكن في الصباح التالي شعرت بايتون بالقلق. عندما كانت مع ماركو لم تفكر أو تقلق إلى هذا الحد. لكن، وبعد أن ذهب، عاودتها مخاوفها.

من الصعب أن تفكر في أنها مصابة بالسرطان. إنها تعرف الخطوات التي عليها أن تجتازها وكيفية العلاج، فقد عاشت ذلك من قبل ليس مرة واحدة بل مرتين. مع أمها وخالتها..

تنفست بايتون بعمق.. إنها متفائلة. فبالرغم مما حصل لأمها وخالتها، ستهزم هي المرض.

ستهزمه، ولكن إذا لم تستطع، فستبقى الطفلتان مع أبيهما.

وهذا أمر إيجابي.

لكن التفاؤل لم يخفف من مخاوفها أو من الألم في داخلها. لقد افتقدت ماركو كثيراً، افتقدت وجهه وابتسامته وصوته. افتقدت طريقة دخوله غرفة النوم وكيف يؤرجح الفتاتين بين ذراعيه، وطريقة نظره إليها من فوق رأسيهما. لكن شوقها البالغ إلى وجوده معها، جعلها تشعر بالحذر.

إنها تتعلق به أكثر مما ينبغي. إنها تقع في غرامه مرة أخرى.

ذكرت نفسها وهي تمشط شعرها بأنه ليس لها. إنها ليست النوع الذي يحبه من النساء. ألم تتعلم شيئاً من الماضي؟

اغرورقت عيناها بالدموع. وأرغمت نفسها على التحرّك، فرفعت شعرها قبل أن تتناول حقيبة يدها المخططة باللونين الأحمر والبرتقالي، ثم أحضرت التوأمين من غرفتهما، شاكرة الله عليهما. إنها شغوف بهما، وبحيويتهما وحبهما للمرح. كانتا مثلها، تعشقان المغامرة.

جرت جايا بيدها اليمنى وليڤيا باليسرى ثم سرن في الشارع.

سألتها ليڤيا بصوتها الصغير: «ماما».

- نعم يا حبيبتي.

- إلى أين نحن ذاهبات؟

أجابتها بايتون وهي تفكر في روعة الشمس وفي أوراق الأشجار الخضراء المتألقة: «نتسوق... نلعب».

أخذت نفساً عميقاً، مستمتعة بالنهار الجميل، محدثة نفسها بأن لا شيء أجمل مما هي فيه.. الآن. إنهن، هي وابنتاها، في «كابري»

الرائعة. . . فماذا يريد الشخص أكثر من هذا؟

الحياة. . .

وقالت لابنتيها شاعرة بانقباض في قلبها: «لنذهب أولاً إلى مزيّن الشعر، وبعد ذلك سنأكل آيس كريم».

وقفت جايا فجأة وجذبتهما لتقفا معها: «هل نحن ذاهبات لقص شعرنا؟».

فقالت ليڤيا: «تقصينه؟».

- نعم. أقصه من أجل فصل الشتاء.

قطّبت جايا ورفعت بصرها إلى السماء الزرقاء الصافية: «لكننا لسنا في فصل الشتاء يا ماما».

- لا. لكنه سيأتي ففكرت في أن أسهّل الأمور. كما أن التغيير حسن.

بالرغم من لهجة الأم المبتهجة، شعرت الطفلتان بالضيق، فنظرتا إلى عينيها متأملتين: «أتقصينه قصيراً كشعر جدتي؟».

حافظت بايتون على ابتسامتها رغم الألم: «ليس إلى ذلك الحد بالضبط».

فدمعت عينا ليڤيا: «لكنني أحب شعرك يا ماما. إنه رائع».

- شكراً يا طفلتي. وأنت شعرك رائع أيضاً.

احتضنتهما والألم يتملكها فهي أيضاً لا تريد ذلك.

ولكن من الأفضل أن تقصّره الآن من أن تراه لاحقاً يتساقط خصلاً بتأثير العلاج. ومن الأفضل أن تعلم الفتاتان بذلك مسبقاً، من أن تُصدما بذلك في ما بعد. وتابعت: «تعاليا معي إذن وساعداني على أن أجد طراز قصّة جميلة. ستنصحانني أليس كذلك؟».

شرعن بالسير مرة أخرى، لكن الطفلتين كانتا قد فقدتا بعض حيويتهما. تشبّثت ليڤيا بيد أمها بشدة بينما أخذت جايا ترمق أمها بفضول، بنظرات جانبية.

سألتها جايا فجأة: «ماما. هل سيعود شعرك فينمو؟».

شدّت الأم على يد ابنتها: «طبعاً».

تركت الفتاتان الموضوع مكرهتين، وأخذتا تتحدثان عن أمور أكثر بهجة.

بلغن المدينة فاجتزن الساحة الفسيحة المربعة ذات القصر الحجري الرائع. وكانت الأزهار تنمو في كل مكان وبألوان صارخة في أحواض زجاجية ضخمة على النوافذ.

كن قد اقتربن من صالون الحلاقة عندما رفعت ليڤيا يدها وصرخت: «أنظري. لقد عاد بابا!».

تملك بايتون السرور وهي ترى ماركو يتوجه نحوهن.

- لقد عدت باكراً. لم نتوقعك قبل المساء.

أجابها وهو يرفع الطفلتين بين ذراعيه: «أنجزت الأمور بأسرع مما توقّعت».

رأت ومضة في عينيه. ولم تعرف، من ملامحه، ما إذا كان غاضباً أم أنه يشعر بالتسلية.

- إلى أين أنتنّ ذاهبات؟

أجابت بايتون وهي تسوّي حمالة حقيبة يدها: «نتمشى لقضاء بعض الشؤون، ثم نذهب لتناول آيس كريم».

وتمنّت ألا تذكر البنتان قضية قص الشعر.

إنها تعرف مقدار إعجاب ماركو بشعرها الطويل، لكنه لن يراه وهو يتساقط.

قال للطفلتين مداعباً، بابتسامة عريضة: «آيس كريم؟ هل تحبان الآيس كريم حقاً؟».

فهتفتا معاً وقد سرهما اهتمامه: «نعم!».

كانتا فرحتين لازدياد معرفتهما به، فيما ابتدأ جفاءهما السابق يتبدد.

قالت ليڤيا جادّة: «ماما ستقص شعرها».

آه، تباً!... وأخفت بايتون خيبة أملها بابتسامة عريضة لكن ماركو لم ينخدع ذلك، فنظر إليها بعينين ضيقتين: «أحقاً؟».

فأضافت جايا بحدة: «نعم تقصه كله.. قصيراً».

وصرخت ليڤيا: «أنا لا أحبه قصيراً، أحبه طويلاً».

أنزل ماركو الطفلتين إلى الأرض: «حسناً، لعل ماما غير مضطرة لأن تقصه اليوم».

شعرت باستيائه، وبدلاً من أن تتفادى نظراته رفعت رأسها وواجهته. هذا شأنها هي وليس شأنه.

السرطان سرطانها وليس سرطانه، وكذلك العلاج. فهي المريضة والجسد جسدها هي. قالت له: «لدي موعد مع الصالون. ولا يمكنني إلغاؤه في آخر لحظة».

فردّ بحدة: «بل يمكنك ذلك. سألغيه عنك وأترك لهم مبلغاً سخياً فلا يتذمرون. إنهم يتفهمون تغيير الرأي».

- ماركو.

- لا. إنها عطلة الطفلتين، عطلتنا. يمكنك أن تفعلي هذا لاحقاً. وربما سيكون هذا أسهل في ما بعد، وذلك بالنسبة لكل منا.

أرادت أن تغضب منه. أرادت أن تريه، أن تذكّره، بأنها مستقلة

وقادرة على اتخاذ قراراتها بنفسها، لكنها لم تشأ أن تكدّر الطفلتين، خصوصاً هذا الأسبوع، وهي تحاول أن تترك لهما ذكريات سعيدة.

وهكذا، ألغى ماركو الموعد وسار معهن في أنحاء المدينة. اشترى للبنتين أحذية خفيفة، واشترى لبايتون قبعة للشمس. وبدا أنه يستمتع بكونه جزءاً من جولة التسوّق والاختيار هذه.

سألته بعد أن اشترى بعض الحلوى والمجلات الفكاهية للمرأة التي استخدمها لرعاية الطفلتين: «هل انتهيت؟».

- وأنت؟

- نعم.

فهتفت الطفلتان: «هل نذهب لنأكل الآيس كريم إذن؟».

وافق ماركو ودخلوا إلى مكان بارد نسبياً.

قالت وهي تجلس: «ما أجمل هذا المكان».

قال وهو يخرج محفظته ويدفع الحساب: «الجو ليس شديد الحرارة في الخارج».

فقالت وهي تجلس ابنتيها: «أنا من سان فرانسيسكو ولا ألبس، خارج العمل، سوى القمصان القطنية الفضفاضة».

- أنت قطة رائعة.

فضحكت. كان يسرها أن يداعبها ماركو، ويبهجها أن تكون الأمور سهلة بينهما...

- ليس لي ذنب في أن أجدادي جاؤوا من بلاد الثلج في الشمال.

عاد إلى المائدة بكأس من العصير البارد: «من حسن الحظ أن الثلج لا يجري في عروقك».

رفعت رأسها بعنف وقد توهج وجهها وقد أخرجها معنى كلامه عن اتزانها. وأسكتته مشيرة إلى الطفلتين اللتين كانتا تأكلان الآيس

www.rewity.com

كريم.

فهز كتفيه: «إنهما تركزان اهتمامهما على شيء آخر».

- ومع ذلك...

سألها بصوت خافت وهو يميل إلى الأمام: «ومع ذلك ماذا؟».

إنه يؤثر فيها، ويثير مشاعرها وليس مخيّلتها فقط.

- ما كان لك أن تقول أمور كهذه.

مد يده وأخذ ملعقتها ليتذوق الآيس كريم الذي أمامها وقال: «ولماذا لا؟».

ثم نظر إليها بعينين ملتهبتين مضيفاً: «إنه صحيح».

٩ - لهب في الكهف

بعد عودتهم إلى البيت، نزلوا جميعاً إلى حوض السباحة، ثم ساعدت بييترا الفتاتين على الخلود إلى النوم بينما بقي ماركو وبايتون في البركة.

عندما تمدد ماركو على المنشفة في الشمس، جلست بايتون في مقعد وبيدها كتاب. لكن الكلمات لم تصل إلى ذهنها... راحت تكرر ما تقرأه مرة بعد مرة، لكنها كانت تفكر في كل شيء ما عدا الرواية.

وخطر لها فجأة أنها لطالما ركزت اهتمامها على الطفلتين ومصلحة الأسرة، ما جعلها تنسى أن بعض ما تحتاجه لا علاقة له بالعالم بشكل عام.

بعض ما تحتاجه له علاقة بالواجب أو بالمسؤولية، أو بالنضج.

وجودها بقرب ماركو جعلها تشعر.. رغم عدم رغبتها في أن تشعر. ولأول مرة منذ أجيال، انتبهت إلى تلك الحرارة القديمة.. والنار.. وهمس الرغبة التي أثارها ماركو في كيانها.

توقعت أن تنهكها الرحلة إلى إيطاليا، وتستنفد طاقاتها، توقعت غضباً وألماً، إحباطاً وندماً. ورغم أنها شعرت ببعض هذه الأحاسيس، إلا أنها شعرت أيضاً بأمور أخرى. شعرت بالمودة والتكامل. قد لا يدوم الشعور بهذا التكامل والمودة إلى الأبد، لكنها مطمئنة إلى أن بإمكانها أن تجد ذلك مرة أخرى.

كان رائعاً أن تتملكها مشاعر عنيفة حقيقية مرة أخرى.

نهض قائلاً وجسمه يلمع بالعرق: «الحر يزداد».

شعرت بموجة من المشاعر تكتسح كيانها، وبانجذاب ليس جسدياً وحسب بل عاطفياً أيضاً. وحتى لو شاءت أن تتجاهل هذه المشاعر لما استطاعت. إنها تشعر به دوماً، وبوجوده قربها، وكأنها خُلقت كي تعرفه، وتشعر به، وترغب فيه.. وبقوة أفزعتها.

عاد إلى السباحة في البركة، فأخذت تنظر إليه. كان سبّاحاً ممتازاً، وسرعان ما قطع البركة لينقلب بعد ذلك على ظهره ويتابع السباحة.

صعد من البركة، وأخذ ينفض شعره من الماء ثم سألها وهو يميل على نحوها: «لماذا أخذت البنتين معك عندما ذهبت لقص شعرك؟».

- ولِمَ لا آخذهما؟ إنهما ترافقاني دوماً إلى الصالون.

- نعم، ولكن أن تقصّي شعرك كله مرة واحدة؟ هذا أمر لا يُحتمل.

- والعلاج الكيميائي لا يحتمل.

- لم أعرف شخصاً عانى من مرحلة العلاج الكيميائي.

ألقت بايتون بكتابها جانباً وهي تقول: «رأيت منه أكثر مما أردت. قد ينقذ الحياة لكنه صعب للغاية. لقد تساقط شعر أمي في خصل كبيرة. وبعد أن كانت تنعم بشعر كث طويل، إذا به يتساقط خصلاً، وفي ظرف أسبوع واحد فاضطرت إلى حلاقته كلياً».

- وهكذا فكّرت في أنك إذا قصصت شعرك قصيراً الآن، فلن يكون التغيير جذرياً فيما بعد.

- نعم.

أومأ ببطء: «هذه الأشهر الستة القادمة ستكون صعبة للغاية

بالنسبة إليك، أليس كذلك؟».

فقالت برقة: «نعم. صعبة جداً».

نظر إليها باسماً، لكن عينيه كانتا رزينتين: «إذن، رأيي هو أن نستمتع بوقتنا هنا فنعود إلى بيتنا بذكريات لا تنسى».

خفق قلبها قليلاً. الوقت يبدو قصيراً وهي لم تشعر قط بقرب الموت كحالها الآن: «هذا عظيم».

فقال: «فلنبدأ بعشاء في «كابري». سأحجز مائدة في مكان صغير أحبه. وسنكون الليلة وحدنا، أنا وأنت فقط».

انتظر ماركو بجانب سيارة الأجرة في الخارج، بينما كانت بايتون تمنح الطفلتين قبلة المساء. بإمكانه أن يتخيّل الفتاتين تحتضنان بايتون، مطوقتين خصرها بأذرعتهما. إنهما شغوفتان بها للغاية، كما أن بايتون طيبة جداً معهما. كانت حازمة، ومع ذلك مرحة في الوقت نفسه. إنها تعرف كيف تتصرف مع حيوية جايا البالغة وطبيعة ليڤيا الحساسة.

أرجوك، يا إلهي، لا تدع شيئاً يحدث لبايتون!

كانت تتوجه نحوه الآن فأعجبته رشاقتها الطبيعية. كانت ترتدي سترة نسائية قصيرة مطرزة بزهور صغيرة وبالخرز فوق قميص من الحرير الأبيض وبنطلوناً أسود من المخمل وقد انتعلت «صندلاً» بأربطة وكعب مرتفع. بدا مظهرها بالغ الأناقة.

لديها ذوق لا يصدّق. كان يظن أن ماريلينا أنيقة، لكن ذوق بايتون هو ثوري.

ومع ذلك، عندما اقتربت منه، رأى عينيها مغرورقتين بالدموع.

وضع يده خلف ظهرها: «ماذا حدث؟ هل من خطب ما؟».

نظرت إليه وحاولت أن تبتسم، لكن شفتيها التوتا ولم تستطع أن

تخفي مشاعرها.

- لا شيء. إنني أفكر كثيراً وحسب.

رأت الطفلتين واقفتين مع بييترا على درجات الڤيلا الأمامية، فرفعت يدها بتحية أخيرة ثم قالت وهي تغالب دموعاً جديدةً أخذت تنهمر: «أريد أن أعيش معهما العمر كله. أريد أن أكون أماً قوية حسنة الصحة على الدوام».

جذبها إليه يحتضنها: «سنجعلك تشفين. هذا وعد مني».

- وماذا لو لم ينجح العلاج الكيميائي؟ ماذا لو لم أعد موجودة لأربيهما وأراهما تكبران؟ لا أستطيع أن أطيق ذلك، يا ماركو. لا أستطيع.

ارتجفت ثم تنفست بعمق وقالت بابتسامة شاحبة: «آسفة، علينا أن نذهب قبل أن أخيف البنتين».

بقي ماركو صامتاً في السيارة بينما شعرت بايتون بالانهاك حتى قبل أن تبدأ الأمسية. رمقته من زاوية عينيها فرأته بالغ الرزانة مشغول البال.

قالت وصوتها ما زال أجش: «لا أدري لماذا حدث لي هذا الإنهيار. كل شيء كان على ما يرام. وكنت أشعر، في الواقع، بأنني سعيدة جداً».

فقال وهو يمسك بيدها: «ستهزمين المرض يا بايتون لأنك قوية. أقوى مما تظنين».

- ولكن إذا لم أعش، فأنا أعلم أن البنتين ستكونان بأحسن حال معك.

فشدّ على يدها: «لا. إنهما بحاجة إليك. ستكونان بحاجة إليك دوماً. ولهذا، كافحي يا بايتون اهزمي المرض. أنت مضطرة

لذلك».

- هذا ما أنويه.

كان المطعم وسط المدينة. جلسا إلى مائدة خارجية في فناء تحيط به الأعمدة بينما الشموع تتوهج على كل مائدة.

أسالت قائمة الطعام لعاب بايتون فقالت لماركو: «أنا جائعة حقاً الليلة. أريد صحناً من كل نوع من هذه».

- كلي ما تشائين.

فضحكت: «سيكون عليك أن تدحرجني من هنا».

- وماذا في ذلك؟ ستكونين، على الأقل، قد استمتعت بوقتك.

العواطف الحارة في عينيه حبست أنفاسها. ليته كان هكذا أثناء زواجهما! ليتهما كانا صديقين لفترة قبل الزواج! قالت: «شكراً يا ماركو».

وضع القائمة جانباً وقال: «وماذا فعلت لتشكريني؟».

رفعت يدها تشير إلى الليل، والأنوار والجوّ من حولهما: «فعلت هذا. هذا رائع يا ماركو. هذا غير عادي حقاً. هذا الوقت الذي أمضيه معك ومع الطفلتين. هذا يساعدني أكثر مما تتصور».

- أظنك أنت الرائعة...

- لا.

- بل أنت كذلك. لديك مواقف مدهشة، يا بايتون. لديك قلب رائع. وبشكل ما، ما زلت تستطيعين أن تبدي مثيرة، أيضاً.

شعرت بايتون بغصة. عندما مدحها، ونظر إليها بكل هذا الحنان في عينيه، شعرت بغليان في داخلها. شعرت بالبهجة نفسها التي شعرت بها تلك الليلة في «تروساردي» حين طلب منها أن تراقصه. تلك الليلة في «تروساردي» كانت بمثل سحر هذه الليلة تماماً.

فبعد الرقص، سارا إلى الخارج وتحدثا مدة ساعة. وعندما عرض عليها أن يوصلها إلى بيتها، قبلت على الفور. لم يخطر في بالها قط أن تغويه. لم يخطر في بالها قط أن تغويه ولو بعناق.

لكنه هو من عانقها. عانقها على عتبة بيتها. كان المصباح الصغير فوق رأسيهما يجذب الفراشات التي راحت تطير وتحوم فأحنى ماركو رأسه وعانقها ثم... حصل السحر.

لم تكن مجرد عناق عابر بل عناق جعل كل ما في الحياة مفهوماً. واجتمعت العاطفة والعقل والمشاعر المحمومة معاً لأول مرة في حياتها.

وربما للمرة الوحيدة.

ما زالت إلى الآن تتذكر كيف جرت الأمور بشكل طبيعي، ومن دون تعقيد. لم تظهر أيّ شكوك أو أسئلة.

- بايتون.

كان ماركو يحدثها، يسألها عن شيء ما... فأجفلت وعادت إلى الواقع: «ماذا قلت؟».

فابتسم: «سألتك إن كنت تريدين مزيداً من الماء».

- لا، شكراً.

شعرت بوخزة حلوة مرة، وبشيء من ندم. يا ليتهما عالجا الأمور بشكل مختلف! يا ليتهما تمكنا من أن يجعلا زواجهما ينجح!

أحضر لهما النادل الحساب، فقال ماركو وهو يعيد محفظته إلى جيبه: «يمكننا أن نعتبر هذا العشاء ناجحاً».

فقالت: «وأننا كنا على ما يرام من دون حارستينا الصغيرتين».

قال بحدة: «لست بحاجة إلى حارس».

ماذا يعني كلامه؟ سألته: «أتظن أنني من يحتاج إلى ذلك؟».

ضاقت عيناه قليلاً وهما تستقران على فمها: «أظنك تريدين حارسة».

فتسارعت خفقات قلبها: «ولماذا أريد حارسة؟».

أخذ يتأمل وجهها.

- أتظنين أنني منيع ضدك وأنني لم أعد أراك جذابة؟

- لا أدري...

- أنا أدري. لمعلوماتك الخاصة، ذلك الشرر الغامض الذي كان بيننا منذ البداية ما زال موجوداً ولم ينطفىء أبداً.

أحبت شعورها لدى سماعها كلماته وما أحدثته هذه الكلمات في جسدها من توتر.

- هذه ليست مهارة، يا ماركو.

- ومتى كنا ماهرين... على الأقل مع بعضنا البعض؟

- لكن هذا سبب لتوخي الحذر الآن، ألا تظن ذلك؟

- ربما نعم، وربما لا. هذا يتوقف على وجهة نظر الشخص في ما يتعلق بالعلاقة الصحيحة.

العلاقة الصحيحة كلمة جيدة. عليها أن تنظر نظرة صحيحة إلى الأمور. لأنها إذا فقدت عقلها، فلن تكون الوحيدة التي ستتضرر.

البنتان، وماريلينا... ثلاثة أشخاص على الأقل سيتأثرون بذلك.

أرغمت نفسها على كبح مشاعرها، وتحذير حواسها. عليها أن تتصرف بمسؤولية. لا يمكنها أن تستسلم لمشاعرها. قالت: «علينا أن نعود قبل أن يتملك بييترا القلق».

- بييترا لن تقلق، كما أنها تتمنى أن نبقى في الخارج طوال الليل. إنها بحاجة إلى نقود.

- ومع ذلك عليّ أن أتصل بها. سأذهب لاستعمال الهاتف...

كانت تحدث نفسها بأن عليها أن تنظر نظرة صحيحة إلى الأمور، فيبتعد الواحد منهما عن الآخر.

قاطعها بلطف: «خذي هاتفي هذا».

وأخرجه من جيب معطفه وناولها إياه.

تقابلت أعينهما وكانت عيناه السوداوان تتحديانها، فشعرت بموجة من الإثارة تغلي في داخلها. كان يعلم أنها لا تريد أن تتصل، وأنها تريد فقط أن تتشبث بما بقي من تحكمها في نفسها.

أجابت بصوت أبح: «ربما لاحقاً».

استعاد الهاتف ووضعه في جيبه: «أخبريني عندما تريدينه».

ثم نظر إليها مرة أخرى وإذا بالحذر يزول من عينيه. رأت في عينيه حرارةً وناراً وجوعاً. إنه يريدها!

والتوت شفتاه بابتسامة مثيرة: «لا تتوتري».

- من المتوتر؟

- بايتون. هناك أنا وأنت فقط. إننا نعرف بعضنا البعض بما يكفي.

فخفق قلبها: «طبعاً».

حاول ألاّ يضحك: «هذا حسن فلنستمتع بوقتنا إذن. ما زال الليل في أوله، وتبدين مثيرة بشكل لا يصدق. أظن أنّ علينا أن نذهب للرقص».

خرجا يجتازان الساحة، يتبعان صوت موسيقى إيقاعية. وعرفت هي المكان من ذلك الصف الطويل أمام الباب الأمامي.

قالت بمرح وقد أراحها أنها لن تضطر إلى الرقص بشكل حميم مع ماركو الليلة: «لا أظن أنّ بإمكاننا أنّ نرقص، على أيّ حال».

فأجاب وهو يأخذ بيدها: «ما من مشكلة».

إنه على صواب. فلا انتظار في الصف ولا دفع نقود للدخول. لقد رأى حارس الباب ماركو فأشار إليه على الفور بالدخول. ما أجملها من حياة، كما أخذت تفكر وماركو يقودها في الملهى المعتم بجدرانه الفيروزية المقوّسة.

عثر ماركو على حجيرة إلى جانب باحة الرقص.

كان الحديث شبه مستحيل بسبب الموسيقى الصاخبة. وقبل أن يطلب ماركو أيّ شراب، وصلهما كأسان من الكوكتيل مع النادلة التي قالت: «مع تحيات السيدة الجالسة في تلك الحجيرة هناك».

وأشارت إلى الحجيرة الواقعة في الناحية الأخرى من الملهى حيث رأيا امرأة ذات شعر أشقر.

وأدركت بايتون بعد لحظات أن السيدة ليست سوى أكبر ممثلات أميركا.

سألته بايتون رافعة صوتها لكي يسمعها: «أتعرف «لس هاربر»؟».

حاولت ألّا تنظر إليها لكن الممثلة كانت ترسل إلى ماركو سيلاً من القبلات الطائرة.

هز ماركو كتفيه: «لقد صممت لها الثوب الذي لبسته حين استلمت جائزة الأوسكار لهذا العام. هل تريدين هذا الكوكتيل أم أطلب لك شراباً أقل غرابة؟».

- ولماذا؟

رفع كأسه وأخذ جرعة ثم قال: «لا أدري إذا كنت مستعدة لأن تتناولي شراب «لهب في الكهف».

- ماذا؟

فكرر والتسلية في عينيه: «الحب في الكهف».

- سمعتك، لكنني لم أصدق أن هذا اسم لشراب.

- إنه الشراب المحلّي، أخذ اسمه من الكهف الفيروزي اللون الذي يجتذب آلاف السياح كل صيف. أظنتا ذهبنا إلى هناك، أليس كذلك؟

مال نحوها هامساً: «لا. لكنه شيء لطالما أردت أن أقوم به معك».

من المكر الذي بدا على وجهه أدركت أنه لم يكن يعني مجرد التفرج.

حاولت أن ترشف الشراب الأزرق، لكن كلما رفعت الكأس إلى شفتيها تخيّلت ما لا علاقة له بزيارة كهف للسياحة في زورق يتسع لأربعة ركاب.

نظر إليها قائلاً: «ألا يمكنك أن تشربيه؟».

- لن أشرب سواه.

- هل نرقص إذن؟

مضت سنوات منذ رقصت معه رغم حبهما للرقص. لكنه أكثر أماناً من الجلوس قباله.

أجابت: «نعم، من فضلك».

فقادها إلى حلبة الرقص، وأدهشها أن تفسح لهما جموع الراقصين مجالاً.

أدركت أنهم يعرفون ماركو. لكن معظم الناس يعرفونه هنا، فهو يزور «كابري» بانتظام، وأسرته تتردد إلى هنا منذ ثلاثة أجيال، حتى أن جده لأمه لعب دوراً في تاريخ الجزيرة.

بعد أغنيتين سريعتين، عزفت أغنية هادئة بطيئة فشدّ ماركو

بايتون إليه، ووضع ذراعه حولها. كانت تعشق رؤيته وهو يرقص بمهارته البالغة، لكنها استمتعت بوجودها بين ذراعيه أكثر، فهو يتمتع برشاقة وقوة ومرونة الرياضي.

أثناء الرقص، رفع يدها إلى شفتيه وقبّلها ما جعل نبضها يتسارع.

قال: «أظن أنّ هذا ما أنت بحاجة إليه بالضبط، وكذلك أنا».

تسارعت خفقات قلبها وشعرت وكأنها على وشك القيام برحلة هامة. هل بإمكانهما أن يجتازا هذا الفاصل الكبير بينهما؟

- أتعهد لك يا بايتون، بألاّ تكوني وحدك في أي شيء تواجهينه.

- أنت لست مضطراً لذلك.

- أعلم هذا، لكنني أريد القيام به. سأكون معك وسنقوم به معاً. مهما حدث سأكون إلى جانبك.

اغرورقت عيناها بالدموع لكنها لا تريد أن تبكي. كان الوضع معقداً بما يكفي من دون فقدانها السيطرة على مشاعرها. وقالت: «الأميرة كريمة للغاية، لكنني لا أظنها توافقك على وعدك هذا».

- لا رأي لماريلينا في هذا. إنه رأيي أنا. لا تُدهشي بهذا الشكل. تعالي نخرج، أظننا بحاجة إلى هواء نقي.

تبعته إلى أقرب باب ففتحه وخرجا إلى هواء الليل. كانت النجوم تتلألأ فوقهما في السماء الداكنة. وشمّت بايتون رائحة البحر المالحة.

قال فجأة: «علينا أن نتحدث عن ماريلينا. أردت أن نتحدث عنها وعنا. يبدو أن ثمة الكثير مما أريد أن أتحدث عنه معك».

شبكت ذراعيها على صدرها: «ربما لأنه لم يسبق لنا أن تحدثنا بشكل صحيح. تلك الليلة في قصر «تروساردي» يبدو أننا تجاوزنا بسرعة ما كان ينبغي أن نقوم به».

www.rewity.com
marmoria5555

ألقى عليها نظرة سريعة شبه ساخرة: «ليس للأحاديث جاذبية التصرفات الأخرى».

- نعم، وانظر إلى نتيجة التصرفات الجذابة الأخرى.

لم تعرف ما إذا كان عليها أن تبكي أم تضحك. فقد كانت علاقتهما مجرد كارثة.

خرجت إليهما النادلة لترى إن كانا بحاجة إلى شيء فطلب ماركو زجاجتين من المياه المعدنية. وبعد ذهاب النادلة ابتسم ماركو: «لا أظننا بحاجة إلى شراب كوكتيل آخر».

وضحك بهدوء ثم اتكأ على الجدار الحجري المنخفض المطل على البحر: «لقد استمتعت بهذه الليلة».

رفعت رأسها ونظرت إلى أعلى. كان القمر موشكاً على الاكتمال، والنجوم تتألق في السماء الزرقاء الداكنة كالحبر. إنها ليلة رائعة، وكان ماركو ممتازاً رائعاً.

صمتا لحظة طويلة يصغيان إلى الموسيقى وهي تمتزج بصوت تلاطم الأمواج على الصخور في الأسفل.

ثم التفت إليها: «لو تحدثنا حينذاك أكثر، أتظنين أن ذلك كان سينفعنا؟».

١٠ - خبرة السنوات الضائعة

لم يعلم ماركو كم آلمتها تلك الكلمات القليلة.

استدارت قليلاً وجلست على حافة الجدار. ورغم أنهما لم يكونا متلامسين، إلاّ أنها شعرت بقربه منها، وبكل ما حدث بينهما.

أجابت: «لا أدري. ربما كنا سننفصل حينذاك على أيّ حال، لكن لعل ذلك الانفصال كان سيصبح أقل إيلاماً».

بقي لحظة طويلة صامتاً، ثم قال: «أكره أن أطرح أسئلة كهذه، لكنني أريد أن أفهم. أنت تتكلمين وكأن الانفصال بيننا كان أمراً محتوماً. لماذا؟».

قطبت جبينها وهي تفكر في جواب مناسب. ثمة أسباب عديدة. كانت تعلم أنّ ثمة أسباب كثيرة جيدة. لكنها، في هذه اللحظة، لم تستطع أن تتذكر أياً منها: «لا أدري. لم أستطع أن أرى كيف يمكننا أن نجتاز الاختلافات التي بيننا».

- ولِمَ لا؟ أساساً، أنت لست سيئة، وأساساً أنا لست سيئاً. في الواقع، لدينا نقاط كثيرة مشتركة.

إصراره جعلها تشعر بشيء من الانفعال. ما الذي يريدها أن تقوله؟ ما هو الجواب الذي يريده؟

تململت في جلستها: «أنا لست خبيرة حقاً بالعلاقات. الخروج مع الشبان لم يكن جزءاً مهماً في ثقافتي».

- ولكن لا بد أنه كان لك أصدقاء.

- شبان، نعم، ولكن ما من علاقات عاطفية. أبداً. كنت الأول في حياتي.

- الأول؟

- نعم، الأول في كل شيء.

وتملكها شعور بالخجل وعدم اللباقة: «لقد رأيت معاناة أمي بعد أن هجرنا أبي، فحاولت أن أبتعد عن العلاقات ونويت ألاّ أتزوج».

- وأرغمتك أنا على ذلك.

- لقد رأيت أن هذا هو الأفضل.

- هذا هو المفروض في العالم المثالي.

عضت شفتها وكبحت آهة. كان اقتراحه قمة في التعالي، لكن عالمهما لم يكن عالماً مثالياً. أو لعل عالمها هي لم يكن مثالياً. لقد دمّرها الزواج من رجل كماركو. فقد كانت كمن نشأ في عالم أرضي متواضع، ثم ألقي به بين الآلهة على جبل الاولمب، كما تقول الأسطورة. فماركو لم يكن رجلاً عادياً، والحياة معه لم تكن عادية أبداً.

ألقى عليها نظرة تقييم: «لقد كرهت الزواج مني، حتى أنني شتمتك لهذا في إحدى مشاداتنا».

احمر وجهها. كان يشير إلى شجار قام بينهما منذ سنوات قبل أن يغادر البيت تاركاً إياها وحدها مع الطفلتين.

- قلت يومها بالضبط: «أميركية، نكرة، حديثة النعمة وغير شاكرة».

استنكر ذلك وأجفل: «أوه.. لم يكن هذا حسناً جداً مني».

إنها تتذكر ذلك الشجار بكل وضوح كالتسعة أشهر التعيسة التي

تلته. الأشهر التي كانت تبكي فيها بدون نهاية شوقاً إليه وإلى حبهما وإلى كل آمالها التي حرمت منها. لقد أحبته للغاية لكنها كرهت الزواج. وتابعت تقول: «هذا صحيح، فقد كرهت الزواج منك. بعد أقل من شهر من زواجنا انتقلت أنت من الڤيلا...».

وسكتت فجأة وقد شعرت بغصة.

لكنها الآن، وبعد أن أتيحت لها فرصة لتفكر، أدركت أن ماركو لم يهجرها.. ولم يقطع الاتصال بينهما.

كانت هي من لم يستطع أن يراه بعد أن غادر البيت. كان هي من امتلأ ألماً وغضباً.

أتراها كانت، من دون وعي منها، تزيد المشاكل، محوّلة المواقف الصعبة إلى حرب بين الجنسين؟ والأسوأ من ذلك، أتراها كانت تعيد تمثيل مشاجرات والديها؟

قال يحضنها: «ماذا كنت تقولين؟».

هزت رأسها. لم تعرف كيف تقول ذلك ولم تعرف ما إذا كان عليها أن تقوله.

عادت النادلة بزجاجتي المياه المعدنية فدفع لها ماركو الحساب. ولكن ما إن توارت النادلة، حتى عاد هو إلى حديثهما: «لماذا كرهت الزواج مني؟ كانت هذه رغبتك».

- وما الذي حصلت عليه من الزواج بك؟ ليس صحبتك بالتأكيد.

- وهل كنت تريدين صحبتي؟

- آه، ماركو. ماذا تظن؟

ورفعت الزجاجة إلى فمها تأخذ جرعة منعشة.

- ظننتك تريدين حياة الترف فقط.

ضحكت ساخرة: «أتعني المركز الاجتماعي والثروة والظهور؟ بصراحة، لم أرغب قط في ذلك. يمكنني رعاية وإعالة نفسي بنفسي».

- وهذا ما قمت به بكفاءة تامة طوال السنتين الماضيتين.

أجابته بحدة، وهي تفكر في حقائق الحياة المروّعة التي لا يملك الإنسان حيلة إزاءها: «حتى داهمني المرض».

عادا إلى الڤيلا بصمت، لكن أفكار بايتون كانت تتسارع.

لم تعرف كيف تستقر على فكرة أو شعور. ما تحدثا به دمرها من ناحية، ومن ناحية أخرى، أراحها وجلب لنفسها السكينة.

غادرت بييترا المنزل وأقفل ماركو الباب.

استدار ليذهب لكن بايتون أوقفته ممسكة بكمه: «ماركو. أثناء إحدى مشاجراتنا قبل الطلاق، قلت لي إن ما يهمني فقط هو اسم «دانجيلو»، وقد ذكّرني حديثنا الليلة بهذا».

- حينذاك قلنا أشياء كثيرة...

فاشتدت يدها على ساعده: «أعرف هذا. ولكن يهمني أن تعلم هذا. كنت مفتونة باسم «دانجيلو» وما زلت. ولكن ليس للسبب الذي تظنه. ولا يهمني المظاهر والشهرة أبداً. بل الأقمشة والألوان والتفصيل هي ما يفتنني. إذا اهتممت بك أو بأبيك فلأنني كنت مغرمة بعملكما، بعملنا».

أتراه لم يستوعب ما قالت؟ اسمه لم يجذبها، أو وسامته. بل انجذبت إليه كله. إلى طاقته، حيويته، خياله، إلى شخصيته كلها.

لقد أحبته.. بكل هذه البساطة.. وبكل هذا التعقيد.

في غرفته، خلع ماركو ثيابه ببطء واغتسل بماء حار متلهفاً إلى أن يسترخي. كانت عضلاته متشنجة. ورأسه ينبض متوتراً.

ما زال أمرها يهمه كثيراً ما جعله يتساءل عما كان يفعله في

السنتين الأخيرتين.

لم يكونا، هو وماريلينا، متلائمين. ومع ذلك بقي سنوات متشبثاً بتلك الفكرة السخيفة وهي أنها ستكون الزوجة المناسبة... الصورة المناسبة.. الرفيقة المناسبة.

لماذا؟ وما الذي يجعل ماريلينا أفضل من بايتون؟

من المؤكد أن ماريلينا لم تأسر مشاعره مثل بايتون.

مع ماريلينا كان يتحكم بمشاعره.. ويكبحها. مع ماريلينا كان يشعر بالانضباط والتعقل.

أما مع بايتون فشعوره بالحياة عنيف، ومشاعره محمومة.

شعور!... جمد مكانه والماء يقطر منه. مسح وجهه بساعده. هل كانت تلك هي المشكلة؟ كانت المشاعر تسيطر عليه مع بايتون ما أفزعه.

جفف جسده، وتناول سروالاً فضفاضاً صممه بنفسه ثم سرّح شعره إلى الخلف بأصابعه، واتجه إلى غرفة بايتون.

دهشت لرؤيته عند بابها: «ما الأمر؟».

كانت قد اغتسلت هي أيضاً، وقد بدت في بيجامتها الحريرية الشبيهة بطراز بيجاما الرجل، صغيرة الجسم والسن معاً. عندما تزوجا كانت في الثالثة والعشرين، وسرعان ما أصبحت في السابعة والعشرين.

إنه يكبرها باثنتي عشرة سنة.. وخبرة الحياة عدا عن الحكمة. ولكن هل تراه تصرف بحكمة؟ هل تصرف قط كرجل ناضج؟

نظر إلى الشعر المسترسل الداكن الحمرة، وإلى العينين الزرقاوين الواسعتين، فرأى أن البراءة ما زالت موجودة. لم يسمح لنفسه طوال سنوات بأن ينظر إليها عن قرب. لم يشأ أن يعترف بأنه سرق

www.rewity.com

منها شيئاً في زواجهما. لم يشأ أن يتحمل أي مسؤولية عاطفية.

لقد آذاها. كانت ساذجة وكان هو قاسياً. فيا لذلك من مزيج!

لا يستطيع تغيير الماضي، لكن المستقبل لا يزال أمامه.

- إذا كنت تعلمين أنّ أمامك أربعة أيام فقط، فماذا ستفعلين؟

اتسعت عيناها الزرقاوان. لقد صدمها بسؤاله هذا: «كنت سأمضي ما أمكنني من الوقت مع طفلتيّ».

اهتزت مشاعره: «أهذا كل شيء؟».

عضت باطن شفتها: «لا. سأمضي معك أيضاً قدر ما أتمكن من الوقت».

مدّ يده يلامس خدها برقة: «كنت أعلم أنك ستقولين هذا».

- هل أنا شفافة إلى هذا الحد؟

- لا. بل هذا ما كنت أرجو أن تقوليه.

ملمسها أحدث خفقاناً مفاجئاً في قلبه... وتمزقاً قوياً في مشاعره. وعاد يقول: «أخبريني، يا بايتون. هل فات الأوان على أن نبدأ من جديد؟».

طرفت بعينيها اللتين اغرورقتا بالدموع وارتجفت شفتاها: «أظننا سبق واتفقنا على أن نكون صديقين».

ومرة أخرى اكتسحته موجة رعناء من المشاعر نحوها. لم يكن يريد أن يكونا صديقين فقط، فهو يريد أكثر من مجرد الصداقة. يريد شيئاً من ذلك الجوع وتلك النار اللذين ذاقهما في ليلتهما الأولى فجذوة الحب مع بايتون حقيقية أكثر وأعنف.

ولامس خدها الحريري الدافىء وهو يقاوم الرغبة في أن يعانقها: «لا يمكننا أن نكون مجرد صديقين. ثمة حرارة تجمعنا معاً. أمور كثيرة وتجاذب كبير».

غصت بايتون بريقها، وحاولت جهدها أن تكبح المشاعر التي أخذت تتحرك في داخلها. كان إبهامه يرسم دوائر على خدها فلم تستطع أن تفكر أو تركز فيما جسدها يتجاوب مع لمساته.

يا إلهي... لقد افتقدته حقاً. افتقدت لمساته وحبه. لمساته وقبلاته لن تزيد الأمور سوى تعقيداً.. وتزيد من آلامها. التقرّب منه سيقوّي مشاعرها وحبها له.

همست بفتور، عالمة بأن عليها أن تبتعد قبل أن تخونها مشاعرها كلياً: «لقد فات الأوان».

التوت شفتاه ولم تبتسم عيناه. بدا غاضباً ومصمماً: «لم يفت الأوان تماماً».

رفعت يدها إلى يده تريد أن تزيحها عن خدها، لكنها وجدت نفسها تتمسك بها.. وكأنها تخاف أن تدعه يذهب.

لكن لا يمكنها أن تبدأ بالرغبة والأشواق، لا يمكنها أن تصبح عاجزة مرة أخرى.

قاومي هذا، يا بايتون! قاومي! إذا لم تقاومي الآن فلن تفعلي أبداً.

اختنقت بدموع لم تنهمر وأحرقت عينيها: «أظنني أسمع الطفلتين».

- أنا لا أسمع شيئاً.

- أنت لا تعرف كيف تصغي.

لم يشأ أن ينصرف: «وماذا لو جاءتا؟ ستريانى أقف هنا».

- لكن ماريلينا...

- ليست هنا وليست طرفاً في المعادلة.

وتابع يقول: «المعادلة هي ماركو، بايتون، جايا، ليثيا. نحن

الأربعة كل ما يهمك، يا بايتون».

أخذت ترتجف فإحساسها نحوه مدمّر. كان كذلك منذ أول ليلة لهما. كان فطرياً وعنيفاً، وقد تركته يجرفها لعدم خبرتها.

لكنها الآن أكبر سناً وخبرة، وأكثر حكمة. يمكنها أن تغفل عن صوت عقلها، وضميرها. ربما بإمكان ماركو أن ينسى ماريلينا الليلة، لكنها هي لن تنسى. نعم، إنها مشتاقة إليه، لكنها تعلم أن وجودهما معاً خطأ.

همست وهي تدفعه «لا، لا، لا. لا يمكنني أن أفعل هذا يا ماركو. أنت لست رجلي..».

- أنا لست رجل أي امرأة.

- لكن ماريلينا...!

رفع رأسه وعيناه تلمعان: «علاقتنا انتهت».

شعرت بايتون برعشة فرح سرعان ما تبعها شعور بالذنب. إنها تحب ماركو وما زالت تريد العيش معه.. ولكن أن تأخذه من امرأة أخرى...؟

قال بشيء من الغضب: «هذا خياري، فأنا لا أحبها. لا أحبها كما يفترض أن يحب الرجل زوجته».

- كلامك هذا من وحي الساعة. ماذا لو غيرت رأيك في ما بعد؟

- تقولين من وحي الساعة؟

وأخرج من جيبه خاتماً ذهبياً مزيناً بحجر كريم رائع للغاية: «ما هذا إذن؟».

حدقت بايتون إلى الخاتم طويلاً: «لمن هذا؟».

- أنت تعرفين جيداً.

- ماركو...

- لم تصدقيني حين قلت لك إنّ علاقتي بماريلينا انتهت. حسناً، هذا هو البرهان. خاتمها. ماذا تريدين أكثر؟

نظرت إلى عينيه متفحصة فيما شعرت بمزيج من الأحاسيس المختلفة: أمل، وخوف وحماسة، وشعور بالذنب.

ونظرت إلى الخاتم في يده.

رفع ذقنها، مرغماً عينيها على أن تواجها عينيه مرة أخرى: «قلت إذا بقي أمامك أربعة أيام فستمضينها معي، وأنا أبادلك الشعور نفسه. إذا كنت أنت المرأة التي أريد أن أعيش معها، وإذا كنت أنت من أريدها أن تنشىء طفليّ، فكيف أبقي مع ماريلينا وأفكر في الزواج منها؟».

- لكنك قلت مرة إنّ ثمة قواسم مشتركة كثيرة بينكما. قلت إن خلفياتكما متماثلة وتشتركان في قيم...

- قلت هذا لأنني ظننت أنني فقدتك إلى الأبد. ظننت أنك لن تعودي أبداً، وليسامحني الله على قولي هذا، لكن ماريلينا كانت بمثابة بوليصة تأمين ثمينة. علاقتي بها كانت تحميني من أن تؤلمني امرأة أخرى.

فهمست: «لكنك بفقدانها تفقد تلك البوليصة».

- أعلم هذا. لكن تلك البوليصة لم تكن فعّالة، على أيّ حال. عندما عدت وأخبرتني بمرضك، وأنك قد تموتين، أدركت أنني أحمق. فقد بقيت لسنوات أتظاهر أنني آمن.. لكن هذا التظاهر مجرد غباء. إنها طريقة الجبناء للنجاة.. وقد أتصف بصفات كثيرة لكن الجبن ليس منها. وأنا أفضل قضاء أربعة أيام معك على قضاء العمر كله مع امرأة أخرى.

أغلق باب الغرفة خلفه وتقدم منها: «أشعر وكأن الساعة قد حانت، يا بايتون. ألم نتحدث بما يكفي لهذه الليلة؟».

عرفت أنه سيعانقها، وكانت تريد هذا العناق بقدر خوفها منه. كانت تعلم أنه إذا لمسها فستذوب وتتخلى عن أيّ ذرة عقل تبقّت لديها.

شعرت بذبذباته، وما يشعر به من إحباط، وتوتر. أراد أن يعاقبها، أرادها أن تشعر بالألم نفسه الذي سببّه له.

أخذها بين ذراعيه وإذا بالغضب يتبدد، تاركاً الدفء وفروغ الصبر.

شدّد من احتضانها فكادت تصرخ ولم تستطع أن تفكر بشكل سليم.

قسم من عقلها كان يأمرها بالهرب منه، فيما القسم الآخر يسكت احتجاجها، متلهفاً إلى حرارته، ومتلهفاً إلى قربه.

وجاء حبل الخلاص من عذابها على شكل بكاء، إذ تعالى بكاء ليڤيا من غرفتها. فدفعته بعيداً عنها وركضت نحو الباب لتستطلع الأمر. وجدت ابنتها جالسة في سريرها تنتحب بعد أن رأت كابوساً مزعجاً. ضمّتها إلى صدرها تطمئنها وتخفف عنها، فغفت الطفلة بعد أن هدأ بكاؤها.

١١ - هل أنت نادمة؟

خرجت من الغرفة بهدوء وأغلقت الباب خلفها فوجدت ماركو ينتظرها في الممر.

- مجرد كابوس.
- وهل تراودها الكوابيس عادة؟
- لا
- حسناً، يبدو عليك التعب. اذهبي وارتاحي وسنكمل ما بدأناه في وقت آخر رغم أنّ صبري قد عيل.

ابتسمت له ابتسامة امتنان، فقد أنهكها هذا اليوم وما حمله من مشاعر متناقضة وما تطلبه من إرادة وعزم.

إنها تحب ماركو، ومن كل قلبها.

في صباح اليوم التالي بعد الفطور، أعلن ماركو أن لديه خطة غير عادية. وعلى الفور التفتت التوأمتان إليه. قال: «سنذهب لزيارة مكان غير عادي. سنغادر بعد يومين، ولكن لا يمكنكن ذلك قبل أن ترين «الكهف الأزرق».

«الكهف الأزرق»... واحمرت وجنتا بايتون. أدركت أنها لن تسمع باسم ذلك الكهف الشهير في «كابري» من دون أن تفكر في أمور مختلفة تماماً.

عندما دخل بهم الزورق إلى الكهف أحاط بهم ضوء قوي الزرقة. كان الضوء الأزرق ينعكس من تحت الماء مشعاً بشكل غير

طبيعي.

لم تر شيئاً كهذا من قبل. لقد حبس «النيون» الأزرق أنفاسها. لم يتكلم أحد في الكهف، إذ لم يشعروا برغبة في اختراق هذا الصمت العميق.

في الخارج، لم تستطع الطفلتان البقاء صامتتين فراحتا تتحدثان عن زرقة المياه الغريبة والضوء الغريب.

قالت هذا وهي تشير بيديها بطاقة بالغة كأي فتاة إيطالية: «وكأن هذا من الفضاء الخارجي».

كان الوقت ظهراً فاقترح ماركو أن يأكلوا البيتزا للغداء. ورغم الزحمة في المطعم، وجدوا مائدة على الفور... يبدو أن ماركو ليس ممن يقفون في الصف...

في طريق عودتهم إلى الڤيلا، قال ماركو إنّ لديه مهمة عليه أن يقوم بها، ثم طلب من السائق أن يأخذهم إلى متجر صغير حيث اشترى هديتين لابنته.

قالت ساخرة: «أراك تنوي تدليلهما».

- هذا طبيعي، أود تعويضهما عن الماضي.

مرت الأيام الثلاثة التالية متشابهة. كانا يسبحان ويلعبان مع الطفلتين أثناء النهار، وبعد ذلك يمضيان يتحدثان الأمسية معاً فيتناولان العشاء ويتسامران ليفترقا كل إلى غرفته، وكأنهما تعرفا إلى بعضهما البعض لأول مرة. فاكتشفا أن ما يجمع بينهما يتعدّى التوأمين وتصميم الأزياء.

كانا يعشقان أن يغيظا بعضهما بعضاً ويسيران وهما يمسكان بيديّ بعضهما ويتعمدان الاصطدام ببعضهما البعض لكي يتلامسا، ويتغازلا كلما سنحت لهما الفرصة.

شعرت بايتون وكأنها عروس في شهر العسل، باستثناء...

في آخر لياليهما في «كابري»، تأخرا في السهر، مستمتعين بالهواء الدافئ، وانعكاس الأضواء على الماء.. كانت هذه آخر ليلة لهما في الجزيرة فجاءت اللحظة شديدة التأثر ومشحونة بالمعاني.

لم يشأ ماركو أن تنتهي هذه الليلة.. لم يشأ أن يخسر أياً من هذا التقارب أو السعادة التي عرفها طوال هذا الأسبوع.

ليت الأمور تستمر معهما بهذا الشكل.. مع مزيد من هذه اللحظات.. هذه اللحظات التي تمنحه السكينة... كما أخذ يفكر فيما بعد.

إنه يعشق رفقتها ورائحتها والنظر إلى جسدها. كانت عفوية وطبيعية ورائعة للغاية.

قال بالإيطالية وهو يعانقها: «جميلة أنت يا حبيبتي».

ابتسمت له وقالت: «لقد منحتني خمسة أيام رائعة. لم أشعر قط بمثل هذه السعادة».

كان شعوره مماثلاً لشعورها: «قلت لك إن كابري ساحرة».

- أنت محق. عندما وصلنا إلى هنا كنت متوترة جداً وخائفة. لقد تغير شعوري الآن، فأنا شجاعة لا أخاف شيئاً.

شعر بالألم. لعلها ليست خائفة، لكنه هو خائف. لم يستطع احتمال فكرة أن يفقدها.

قال: «تزوجيني».

طرفت بعينيها ولم تقل شيئاً بل بقيت تحدق إليه صامتة.

وتابع يقول: «تزوجيني وأقيمي في ميلانو. ما من سبب يمنع ذلك. وهذا يناسب الطفلتين، ويناسبنا. ستكونين بحاجة إليّ في الأشهر القادمة. بايتون.. يا جميلتي، أنا بحاجة لأن أكون معك».

- ماركو.. لقد جربنا الزواج من قبل.

- أهذا رأيك؟

وانحنى فوقها يسند نفسه بذراعيه فمدت يديها تضغط على صدره: «زواجنا لم ينجح. هل نسيت؟».

- لم ينجح لأننا لم نكن ناضجين. لكننا أكبر سناً الآن وأنضج.

أكمل بعد قليل: «هذه المرة، الحب إلى جانبنا».

وفي الصباح التالي، استقلوا طائرة مروحية من «آنا كابري» إلى مطار نابولي، ومن ثم طائرة خاصة من نابولي إلى ميلانو.

وجدوا الجو في ميلانو حاراً بعد جماله في «كابري». وفي فيلا ماركو في ضاحية المدينة، أنزل السائق الأمتعة، فاندفعت الطفلتان إلى اللعب على الفور، بينما أمسك ماركو بيد بايتون ووقفا في المدخل، قبل أن يقول بصوت عميق: «لم أسمع منك جواباً».

شعرت بتوتره وبعواطفه المحمومة المكبوتة، وعندما اشتبكت عيناه السوداوان بعينيها، شعرت بنفسها تقع في غرامه مرة أخرى وبقوة.

كان وجودها مع ماركو كالحلم بل أفضل لأنه حقيقة واقعة. إنه حقيقي. رقته وقوته ليستا وهماً. عندما أصبحت صحتها في خطر، تقدم منها وسعى ليجعل كل شيء على ما يرام.

وانتفض قلبها عندما عانقها قائلاً: «تزوجيني يا بايتون».

- ماركو..

- لا أريد أن أسمع كلمة لا، أو ربما. قولي نعم، يا ماركو... سأتزوجك. قولي نعم يا ماركو سأتزوجك في هذه العطلة الأسبوعية.

ليساعدها الله، لأن كلمة لا ليست في قاموسها، إذا كان الأمر يتعلق بماركو دانجيلو. ولذا، أحاطت عنقه بذراعيها، وعانقته

قائلة: «نعم يا ماركو، سأتزوجك هذه العطلة الأسبوعية».

لن يستطيعا إقامة عرس فخم آخر، كما أنهما لا يريدان هذا. فاقترح أن يقيما احتفالاً صغيراً للغاية في معبد سانت ماريا الجميل والذي لا يبعد كثيراً عن قاعة ماركو لعرض الأزياء. كان الاحتفال خاصاً واقتصر على أفراد الأسرة الأقربين. جايا وليڤيا ستكونان وحدهما الشاهدتين، وسُرّت بايتون لهذا، فعهود الزواج هي ما تريده.

صبيحة يوم الإحتفال، نقر ماركو على باب غرفة نوم بايتون، ففتحت له.

قال: «لدي شيء لك».

نظرت إليه في سترته الرسمية وربطة عنقه: «أتلبس ربطة عنق سوداء؟ أليست الحفلة غير رسمية؟».

- بلى.

- ما دام الاحتفال خاصاً، فمن المفترض ألاّ يكون هناك غيرنا.

تقابلت نظراتهما: «نعم، لكنه يبقى شيئاً غير عادي، خصوصاً بالنسبة إليّ. أنا سعيد جداً لأن الحظ خدمني بهذا الزواج مرة أخرى. أنا سعيد جداً لأن الحظ حالفنا.

فشعرت غصة: «وأنا أيضاً».

غالبت دموعها فهي لا تريد أن تبكي اليوم. إنه يوم عرسها. وتابعت تقول: «لكنني أتمنى لو أن لديّ ثوباً مناسباً أكثر لأرتديه. تبدو رائعاً يا ماركو، أشبه بعارض أزياء».

- أنا واثق من أن في خزانتك ثوباً رائعاً. إنك مصممة أزياء ذوّاقة.

ومال إليها يعانقها: «تذكري أنك مستقبل «كالڤانتي» مصمم

الأزياء».

كان يغيظها مداعباً فضحكت وقد خففت حرارة صوته من خيبة أملها لعدم حيازتها ثوب مناسب لتلبسه في الكنيسة هذا الصباح: «قلت إنك أحضرت لي شيئاً؟».

- ما رأيك في هدية قبل العرس؟

اعتصر قلبها وقالت بفتور: «هذا فظيع. لاسيّما في آخر لحظة».

ضحك: «هذا حسن لأنني لا أحمل هدية ولكن ثمة شيء لك في خزانتك».

هرعت بايتون إلى خزانتها حيث وجدت كيس ثياب يستعمله المصممون عادة للملابس المفصلة: «ما هذا؟».

- ماذا تظنين؟

- ثوب؟

- أحسنت. لطالما كنت ماهرة.

اغرورقت عيناها بالدموع فأخذت تغالبها بعنف، مستغربة كيف جعلها تبكي بسبب ثوب، فهي تعمل في مجال الأزياء ومع ذلك، حين أهداها ماركو ثوباً، شعرت أنها غالية عنده.. وغير عادية. لم يسبق أن صمم لها شيئاً من قبل قط.

ألقت بالكيس على السرير ثم فتحته بيدين ترتجفان، وأخرجت الثوب الأبيض.

كان القسم الأعلى منه محكم التفصيل ومطرزاً بعدد لا يحصى من اللآلىء. أما التنورة فكانت واسعة ببطانة نارية اللون.

- تبدين رائعة في اللون الأبيض، لكن الناري يناسبك.

علا صوت ماركو الهادىء.

احتضنت بايتون الثوب ثم أخذت تبكي: «ما من أحد خاط لي

ثوباً منذ كنت طفلة صغيرة».

لم تستطع أن تمنع دموعها من الانهمار، لكنها لم تسمح لها بالسقوط على الثوب: «هذا ثوب رائع للغاية وغير عادي».

اقترب منها يمسح دموعها: «لقد صممته في «كابري». استأجرت خياطة عملت عليه ليل نهار ولمدة أسبوع تقريباً».

- لكنني قلت (نعم) للزواج أمس فقط.

- ما كنت لأرضى بالرفض. كنت سألاحقك بالطلب حتى ترضين.

في ضوء الشموع الناعم، تبادل ماركو وبايتون عهود الزواج والخاتمين، وذلك في كنيسة سانتا ماريا. كانت شمس العصر تطل من خلال النوافذ الملوّنة الزجاج، مضيئة ثوبي الطفلتين الأبيضين بخزاميهما الأحمري اللون.

كانت الطفلتان جميلتين للغاية، ولكن ما من أحد تألق بقدر بايتون، إذ أحاطت شمس المغيب رأسها بهالة، ولمعت على ثوبها. كان صدر الثوب يظهر كتفيها الناعمتين ويبرز شعرها الأحمر الطويل المسترسل على ظهرها.. الثوب كله كان ملائماً تماماً لشخصية بايتون، بحلاوتها ومرحها ورقتها وعنفها.

شعر بألم في صدره، وتملكته مشاعر من القوة بحيث أدهشته، لم يستطع أن يفهم كيف سمح لكبريائه بأن تفصل بينهما.

انتهى الاحتفال المختصر، فاتجهوا جميعاً إلى حيث تقام الحفلة الخاصة.

كان ماركو قد حجز مائدة في مطعم خاص في وسط المدينة. وعندما وصلا، وجدا المدعوين في انتظارهم، وهم من أصدقاء وزملاء ماركو.. من المصممين على الأخص والمصورين والفنانين.

www.rewity.com

وحيّى الجميع ظهور ماركو وبايتون بالهتاف والاستحسان.

أما التوأم فتقرر أن تحضرا حفل العشاء لساعة واحدة ثم تعود بهما بييترا إلى الڤيلا، وقد استمتعا برؤية الاحتفال وماركو وبايتون معاً.

ابتدأت الأنخاب فنظر ماركو إليها باسماً.

كانت وجنتاه اللاتينيتان العاليتان تتألقان في ضوء الشموع الذهبي حيث بدا بالغ الرضا. كانت سترة العشاء، وهي من تصميمه، متلائمة مع جسده تماماً.

وعندما تأخر الليل عاد ماركو إلى جانب بايتون وأخذ يتفحصها بإمعان: «هل أنت نادمة؟».

فضحكت، ثم وقفت على أطراف أصابعها تقبله: «أبداً».

١٢ - مكيدة مدمرة

مكثت بييترا مع الطفلتين في الڤيلا فيما ذهب ماركو مع بايتون لقضاء ليلة عرسهما في أفخم فنادق ميلانو والذي يقوم في قلب منطقة دور الأزياء على بعد أمتار من مقر ماركو الرئيسي.

لم ينتظر ماركو لحظة بعد دخولهما غرفتهما فأخذها بين ذراعيه وحملها إلى السرير.

وفي ساعات أفرغ ما كبته في السنين الأخيرتين من شوق ورغبة وحب وحنين. حتى قُرع الباب وتعالى صوت يقول من خلفه: «خدمة الغرف».

التفتت بايتون إليه تسأله: «أظنك وضعت لوحة عدم الإزعاج على الباب؟».

- لقد فعلت.

وصاح بجيب الطارق: «لسنا بحاجة إلى شيء».

وساد الصمت لحظة وإذا بمغلّف كبير يبرز من تحت الباب فشتم ماركو ساخطاً: «هذا أمر لا يصدّق. أما من أحد يسمع؟».

- لا تقلق. إبق مكانك وسأحضره أنا.

وتوجهت بايتون إلى الباب ثم قالت وهي تعود إلى السرير: «إنه لك».

ناولته المغلف وجلست بجانبه لكن ماركو لم يكن مهتماً بالبريد.

أحاطها بذراعه وهو يلقي بالمغلف إلى الأرض وغابا في عالم من

اللذة.

بدا وكأن ساعات مرت قبل أن تلجأ بايتون إلى الحمام حيث تركت المياه تنساب على رأسها وشعرها.

لم تتصور قط أنها ستستمتع بعلاقتها مع ماركو إلى هذا الحد.

كانت قد خرجت لتوها من تحت الماء وقد لفت منشفة كبيرة حول جسمها، عندما ناداها ماركو. فلفت شعرها بمنشفة أخرى وفتحت الباب: «نعم؟».

ظنت أن الفطور أُرسل إليهما مع القهوة لكنها لم تر صينية أو عربة فطور. وبدلاً من ذلك رأت ماركو واقفاً يحدق إلى ورقة في يده.

سألها: «ما الذي يجري بحق جهنم؟».

- ماذا قلت؟

رفع رأسه ونظر إلى بايتون التي بدت وكأن منشفتي الحمام تبتلعانها، فشعر وكأنه يوشك أن يتقيأ. هذا غير ممكن.

لا يمكن أن تخفي عنه تفاصيل بهذه الأهمية. لا يمكن أن تخفي عنه سراً كهذا. وعاد إليه الماضي واضحاً وقد تفتح ذهنه فجأة... ورأى كل شيء مرة أخرى.

لم ينس قط حين أدرك أن حياته لم تعد حياته.

لقد احتالت عليه حينذاك ثم عادت فاحتالت عليه مرة أخرى.

- ماركو، تبدو مريضاً.

تقدّمت منه حافية القدمين وملامحها بريئة إلى حد لعين ما جعل قلبه يحترق. فقال: «وأنا أشعر بالمرض».

- هل هي معدتك؟ هل أكلت شيئاً؟

- لا.

- كل شيئاً إذن.

وإذا به يتصورها فجأة كما كانت الليلة الماضية بين ذراعيه.

تذكر كيف احتضنها وتذكر رائحتها وهي تميل عليه وخصلات شعرها تلامس وجهه. كانت رائحتها مزيجاً من الحب والعطر والبهار. كانت قد وضعت من العطر الجديد الذي ركّبته مؤسسته والذي ساعدت هي في إعلانه.

إنها غاوية... مغرية... وفنانة محترفة.

- ماركو، قل شيئاً. ماذا حدث؟

شعر وكأن شيئاً قد مات. شعر وكأنه تلقى خبراً مفجعاً... لا يمكن أن... لا يمكن أن يحدث هذا مرة أخرى.

- ماركو...

- ما من خلايا مريضة.

- ماذا؟

يا للبراءة الملعونة!... إنه تمثيل. كله كان تمثيلاً... مرة أخرى.

صرف بأسنانه للمرارة التي ملأت فمه: «الفحص نظيف. النتيجة سلبية. النتيجتان سلبيتان. أنت بصحة حسنة».

تقدمت منه مادة يديها وكأنما لتعانقه: «يا إلهي يا ماركو! هذا رائع. هل هذا صحيح؟».

- هيا أخبريني أنت يا بايتون. أيتها الممثلة!

واخترقها صوته البارد بشكل عنيف، فتوقفت بايتون عن السير وقد تخدر جسمها.

- ماذا تقول؟

- أقول إنك كنت تعرفين هذا منذ البداية، وإنك تلقيت هذا

الخبر قبل أن نذهب إلى «كابري» وأخفيته عني.

- لا.

- كنت تعلمين قبل أن نتزوج أنك بصحة جيدة. اعترفي بذلك.

- لا يمكنني أن أعترف بشيء لم أفعله!

تسارعت نبضات قلبها لكن أطرافها بقيت كالثلج. لم تفهم... لم تفهم أياً من هذا. أخذ عقلها يعمل بسرعة لكن أفكارها راوحت مكانها: «ماذا وجدت في المغلف؟».

- تقارير المختبر عن صحتك.

- هل يمكنني رؤيتها؟

ضحك بمرارة: «لماذا؟ فأنت تعرفين ما تقوله التقارير (خطأ مخبري. غلطة بشرية) حتى أن الصور لم تكن صورك».

تراقصت كلماته القاسية في رأسها، وكادت ساقاها تنهاران: «هل الأمر كله مجرد غلطة؟».

- نعم، يا حبيبتي. كل هذا كان غلطة كبرى.

واستدار وأخذ يرتدي ملابسه ومعطفه فيما راحت هي ترتدي ثيابها بالسرعة نفسها.

- إلى أين أنت ذاهب يا ماركو؟

- لا أدري. فقط أريد أن أخرج من هنا وحسب.

- ماركو.. عليك أن تصدّق أنه لم يكن لديّ فكرة عن هذا كله. لم يخبرني أحد...

- هذا كذب.

واستدار ورفع التقرير من على السرير: «انظري إلى هذا. اقرئيه: حصل الاتصال هاتفياً بمايتون سميث دانجيلو في ٢١ أيار. واتصال هاتفي آخر من المريضة في ١ حزيران حيث طلبت نسخة طبق الأصل

من التقرير...».

- لكنني لم أفعل.

فتابع: «ملاحظة أخرى. وثيقة أرسلت بالبريد المعجّل إلى ميلانو ووقّعها المستلم. ماذا تريدين مني، يا بايتون؟ لماذا كل هذه الألاعيب؟».

طرح سؤاله الأخير وهو ينظر إليها بعينين ملتهبتين. لم تستطع أن تجيب. لم يخطر في بالها كلمة واحدة تقولها. إنه لا يصدقها، حتى إنه يرفض الإصغاء إليها. كيف يمكنه أن يحبها إذا كان لا يثق بها؟.

ونظرت إليه وهو يرتدي كنزته ثم حذاءه. كانت تعلم أنه إذا تركها الآن فلن تعود الأمور إلى ما كانت عليه وسيحطم قلبها من جديد.

- أرجوك أن تبقى، يا ماركو، أرجوك، لا تتركني وخصوصاً بهذا الشكل.

سمع البكاء في صوتها لكنه لم يتأثر، لم يلمس هذا شعوره. إنه متخدر الحواس في هذه اللحظة لا يشعر بشيء.

لحقت به إلى الباب وهي تقول متوسلة: «لا تدعها تفعل بنا هذا».

جمد ماركو مكانه، وتوقفت يده على مقبض الباب: «تفعل؟».

فأجابت بتأثر، وهي تكاد تفقد أعصابها: «من سيفعل هذا، على أي حال؟ من يفعل هذا ليلة عرسنا؟ فكر في ذلك يا ماركو... هناك من لا يريدنا معاً. إنه مصمم على أن يؤذيك، وبالتالي يؤذينا، نحن الإثنين».

أدرك، في أعماقه، أنها على حق. أدرك أن شخصاً ما جمع هذه المعلومات ووضعها في مغلّف وأرسله إليه في جناح العرائس في هذا

www.rewity.com
marmaria5555

الفندق. لكن هذا العمل لم يغيّر الحقائق، وهي أن بايتون لم تكن صادقة أو صريحة معه قط.

شعر بغثيان وبارتباك بالغين. الليلة الماضية هي الأسعد في حياته، ولكن هذا..؟ ما الذي يحدث بحق جهنم؟

إنّ بايتون إما قاسية وإما مجنونة. ولكن، من الواضح أنها بحاجة إلى مساعدة. كيف أمكنها أن تفعل هذا به؟ بالطفلتين؟ بهم جميعاً؟ السرطان ليس مزحة.

وتذكر أحاديثهما عن العلاج الكيميائي، وموعدها في صالون التزيين لتقص شعرها... وارتجف وتملكه الفزع وعاد إليه الشعور بالغثيان.

أي امرأة عاقلة تجعل أسرتها تمرّ بهذه المعاناة؟ أي امرأة عاقلة تجرّ طفلتيها، وزوجها، إلى جهنم ومن جهنم؟.

وقالت بصوت مرتجف وهي لا تزال تجاهد لكي تلبس حذاءها: «أرجوك، يا ماركو، دعني أخرج معك. يمكننا أن نتكلم... يمكننا أن نحل هذه المعضلة...».

- لا أريد أن أحل شيئاً.

كل ما يعرفه هو أنه يريد أن يبتعد عنها. لا يستطيع أن يحتمل الجلوس معها في غرفة واحدة، أو أن ينظر إليها أو يسمعها.

ورأته يخرج فتوقفت عن ارتداء ملابسها ووضعت يدها على معدتها. ما الذي حدث لتوّه؟ وكيف تحوّل أجمل يوم في حياتها إلى كابوس؟؟

لم تعرف بايتون ماذا عليها أن تفعل. كانا قد قررا قضاء العطلة الأسبوعية في الفندق، فبعد أسبوعهم في «كابري» أدركت بايتون أن ماركو بحاجة إلى العودة إلى عمله. وكانت هي متلهفة لزيارة طبيب

مختص في ميلانو.

التقطت الرسالة الملقاة على السرير، فوجدت أنها مرسلة من المدير الطبي في مختبر الأورام في سان فرانسيسكو.

قرأت الرسالة فرأت أنها تتضمن اعتذارات عديدة، لكن الأهم هو أنها ليست مريضة، وأن نتيجة الفحص نظيفة. لكن موظف المختبر خلط لسوء الحظ بين صورها وصور مريض آخر.

رفعت بايتون نظرها عن الرسالة الموجودة على حجرها: المريض هو شخص آخر إذن وليس هي.

كان يمكن لهذا الخبر أن يكون رائعاً، وهو يستحق الاحتفال.

لكن ما من احتفال فقد رحل ماركو وليلة عرسهما تسممت.

كان الوقت باكراً ولم يعرف ماركو إلى أين يذهب. كان المفترض أن يمضيا في الفندق فيما تبقى بيترا مع الطفلتين. يمكنه الآن أن يذهب إلى بيته، لكنه لا يستطيع أن يرى الطفلتين حالياً فهما تذكرانه بأمهما وهو لا يحتمل حتى التفكير بها.

لماذا فعلت هذا؟ عندما عرفت أن المختبر أخطأ، لماذا لم تخبره؟ لماذا تابعت هذه اللعبة الغامضة؟

وتحوّلت حيرته إلى غيظ بالغ. لم يكن بحاجة إلى هذا كله فهو متعب. يكفيه ضغط العمل، وضغط إدارة عمله.

لن يتركها تفلت بعملها هذا من دون عقاب. لن يسمح بأن توقعه في شباك الزواج بطريقة احتيالية للمرة الثانية. سيطلقها بسرعة بحيث لا تعلم ماذا أصابها. في الواقع، سيطالب بحق الوصاية على الطفلتين، وصاية منفردة.

سيأخذ الطفلتين، وسيأخذ حكماً قضائياً بذلك. ولتفعل بايتون ما تشاء!.. فلتذهب إلى جهنم، إلى كاليفورنيا، أو تأخذ شقة في

ميلانو أو تنتقل إلى تاهيتي... لم يعد يهتم بها بعد الآن. لكن، بصرف النظر عما فعلت الأم، سيحتفظ بالطفلتين وسيحميهما منها.

عندما يقود ماركو سيارته لا يتوقف أبداً. قيادة السيارة هي الأمر الوحيد الذي يبقيه مشغولاً ومتحكماً بطباعه. ولذا، انطلق ولم يتوقف حتى وصل إلى منطقة البحيرات حيث أعاد ملء سيارته بالوقود ثم تناول الغداء.

عاد بعد الغداء نحو ميلانو فوصل إلى الڤيلا قبل منتصف الليل. كان متعباً من قضاء ساعات وراء المقود ومن عدم النوم، فهو وبايتون لم يناما كثيراً الليلة الماضية.

أوقف السيارة في المرآب، ثم صعد السلم إلى الڤيلا المظلمة. ظهرت بييترا في الردهة فحيّته بصوت ناعس، ورد عليها بإيماءة عابسة.

- هل كل شيء على ما يرام؟

فكر في أن يرحل ثم شعر بأن ليس لديه طاقة لذلك فقال: «لا».

بدا القلق على بييترا: «هل تريدني أن أبقى الليلة هنا؟».

- نعم من فضلك.

ثم تردد أسفل السلم وسألها: «هل نامت بايتون...».

وسكت وقد وجد مستحيلاً عليه ذكر اسمها، لكنه عاد يقول: «هل جاءت إلى هنا؟».

- لا.

أومأ ثم صعد السلم إلى الطابق العلوي. كانت غرفة الطفلتين تسبح في ضوء ليلي خفيف، وهما مستغرقتان في النوم.

استند إلى الباب. كل شيء يبدو طبيعياً، كما كان في «كابري». شعر بنفسه صغيراً عاجزاً. لقد عشق وجود الطفلتين هنا، عشق

عودتهما إلى حياته، فكيف يفقدهما مرة ثانية؟ كيف يسمح لبايتون بأن تحول بيته وبينهما مرة أخرى؟

وأجاب نفسه بصمت بأنه لا يستطيع فعل ذلك ولن يفعل.

أخذ يغالب دموعه. لماذا حدث هذا؟ كانت الأمور على ما يرام. بدا كل شيء صواباً.

رفع جايا بحذر، ثم غطاها جيداً. وإذا بها تتحرك: «بابا».

- نعم، يا طفلتي.

مرر يده على جبينها بلطف، مبعداً شعرها إلى الخلف.

- أين ماما؟

خنقته غصة وقال كابحاً مشاعره: «إنها تقوم ببعض الأعمال».

- أنا مشتاقة إليها.

- وهي مشتاقة إليك أيضاً.

- هل ستأتي لتقول لي (ليلة سعيدة)؟

- حالاً.

- هذا حسن.

وابتسمت راضية: «قبلة؟».

انحنى فوقها، ثم قبلها بلطف.

اندست أكثر تحت الأغطية: «قل لماما أن تأتي حالاً».

اغرورقت عيناه بالدموع. كيف سينجح الأمر؟ كيف سيحمي الطفلتين مما ينتظرهما من أذى هائل؟

أغلق الباب ثم وقف في الردهة فترة طويلة. ماذا يريد أن يفعل؟ ماذا عليه أن يفعل؟

إنه غاضب من بايتون، لكنه لا يكرهها. إنه يعلم أنها أم صالحة للطفلتين، لكنها لم تكن صادقة معه.

سمع رنين الهاتف في الناحية البعيدة من المنزل فخطر في باله أنها قد تكون بايتون. أسرع إلى غرفته ليجيب.

- ماركو.

ولم تكن بايتون بل ماريلينا. كيف علمت أنه عاد إلى البيت؟ كيف علمت بأنه ليس في شهر العسل؟

قال باختصار: «الوقت متأخر».

- أتريد أن تأتي لتناول فنجان قهوة؟

بدا صوت الأميرة طبيعياً عفوياً.

- الوقت بعد منتصف الليل، يا ماريلينا.

- لقد سبق وتناولنا القهوة مرات عديدة بعد منتصف الليل.

فكّر في أن ذلك لم يحصل أثناء شهر عسله وقال: «كان يوماً مرهقاً».

- سآتي أنا إذن.

- ماريلينا...

قالت ماريلينا وقد خفت صوتها فجأة: «إنها هنا، يا ماركو... إنها هنا ولا أدري ماذا أفعل».

- بايتون؟

- ماركو... إنها متكدرة جداً. وأنا خائفة...

قاطعها باختصار: «إنها ليست مريضة».

شعر أنّ مناقشة هذا الأمر مع ماريلينا تذله. تباً لبايتون لأنها قصدتها! تباً لها لأنها جعلت الآخرين يتدخلون.. لاسيّما ماريلينا بالذات!

أجابت ماريلينا بهدوء: «أعلم هذا. كنت أعرفه منذ فترة. إنها قصة طويلة، يا ماركو. هل تأتي هنا أم نأتي نحن إليك؟».

عندما قابل ماركو الأميرة لتناول القهوة لم تكن بايتون معها، فسألها وهو يوقف سيارته أمام مقهى المدينة الصغير الذي يتأخر ليلاً: «ألم تأت معك؟».

- لا. لقد غادرنا المنزل معاً، سارت على قدميها.

توترت أعصاب ماركو. ما كان لبايتون أن تسير وحدها في هذا الوقت من الليل. لم تعجبه فكرة خروجها وحدها، فالنساء عاجزات، لاسيّما في المدن الكبيرة. وسألها: «أتعلمين إلى أين توجهت؟».

هزت كتفيها: «كانت متكدرة، وهذا كل ما أعرفه».

طلبا قهوة، وعندما جلسا أشعلت الأميرة سيكارة فقال ماركو وهو يضع مرفقيه على المائدة: «ظننتك تركت التدخين منذ سنوات؟».

- هذا صحيح، لكنني اضطررت إلى إشعال واحدة الليلة. والآن أخبرني يا حبيبي... من أين أبدأ؟

- من الجزء الذي جعل بايتون تخدعني مرة ثانية لأتزوجها.

تنفست الأميرة ببطء: «هذه بداية جيدة».

ورفعت فنجانها إلى شفتيها ثم أردفت: «لكن الموضوع غير صحيح».

شعر بغصة في حلقه فصدر عنه صوت هو مزيج من الضحك والشخير الساخط: «هل هذه فعلتك؟».

- ظننت أن بإمكاني أن أفعل ذلك. كنت واثقة من هذا. الغيرة ليست جميلة، لاسيّما عند النساء في عمر معيّن. لكنني كنت أغار، وما زلت.

خطر لماركو أن ينهض ويخرج. لم يكن في مزاج يحتمل هذا.

www.rewity.com
mazmoria5555

وتابعت قائلة: «القصة، في الواقع، بسيطة للغاية. كنت في بيتك منذ عشرة أيام عندما جاءت مخابرة من سان فرانسيسكو. كانت بايتون في الحديقة مع الطفلتين. فأجبت أنا على الهاتف وقلت إنني من الأسرة فأعطاني الطبيب المعلومات. شكرته ووعدته بأن أوصل الخبر».

جمد الدم في عروق ماركو: «كنت تعلمين إذن».

- نعم، ولم أخبر أحداً.

وأخذت نفساً طويلاً من سيكارتها: «كان هذا سري، وسلاحي أيضاً.. هذا في حال احتجت إليه».

وفعلت هذا...

- وتقرير المختبر؟

نفثت دخان سيكارتها في حلقات: «عدت فاتصلت بطبيب المختبر وطلبت منه إرسال نسخة عن التقرير».

- أنت وضعت التقرير تحت الباب؟

وسحقت سيكارتها بقسوة وقد اغرورقت عيناها الجميلتان بالدموع: «لقد أحببتك، يا ماركو، أكثر مما أحببت أي رجل آخر. ربما لهذا السبب لم أستطع أن أحتفظ بأفعالي القذرة سراً».

ابتدأ ماركو ينهض عن المائدة. لقد ظلم بايتون. لقد أذلها تماماً.

قالت ماريلينا تمنعه من الخروج: «لأسوأ على الإطلاق، هو عندما جاءت بايتون إلى بيتي اليوم. لم تلمني ولم تقل كلمة واحدة ضدي. إنها، بكل بساطة، طلبت العون مني».

ومالت الأميرة إلى الخلف وهزت رأسها، متابعة: «طلبت مني المساعدة».

١٣ - غلطة فظيعة

عاد ماركو إلى الڤيلا. قاد سيارته وقد غامت عيناه وأخذ رأسه ينبض.

لم تخدعه بايتون بل كانت بايتون في ظلام دامس.

وهو لا يلومها إذا لم تصفح عنه.

دخل البيت وأشعل ضوء الردهة. جاءت بييترا فأومأ إليها بالتحية، عندئذ عادت المربية إلى غرفتها بهدوء.

لو جاءت بايتون لأخبرته المربية. ووضع يديه على وركيه وأخذ ينظر إلى قمة السلم. إنه يعلم أنها ليست هنا ولو عادت لشعر بذلك، لكنها لم تعد، وشعر بالبيت خالياً.

حاول أن يستلقي فلم يغمض له جفن. نهض بعد ساعتين وأخذ ينظر من نافذة غرفته. كان الفجر قد أوشك على البزوغ والشارع صامتاً.

إذا حدث لها أي شيء، فستنهار الطفلتان لأن بايتون محور حياتهما. كانتا أشبه بكوكبين وهي الشمس التي يدوران حولها.

وخطر له أن الطفلتين ليستا الوحيدتين اللتين يعبدانها بل هو أيضاً.

فكر في المستقبل وأدرك أنهما قادران على أن يحققا الكثير.

كان عليها أن تعود إلى البيت. سينتظرها حتى الصباح، وإذا لم تأت، فعليه أن يخرج للبحث عنها.

لكنه يريد في حال عدم عودتها، أن يكون مستعداً. إنه متلهف للاعتذار وللمحاولة مرة أخرى. جلس على أسفل درجات المدخل ينتظر. مرت ساعة، ثم أخرى. وثقلت عيناه، وكاد النعاس يغلبه.

دار مفتاح في قفل الباب الخارجي ودخلت بايتون وكأن هذا أمر عادي للغاية. وضعت حقيبتها على الأرض ثم حقيبة يدها: «مرحباً».

فانتصب في جلسته: «أين كنت؟».

نظرت إلى خلفها: «جلست في كثير من المقاهي وشربت الكثير من القهوة».

وأغلقت الباب الأمامي ثم أضافت: «ماذا تفعل أنت هنا؟».

- أنتظرك.

نظرت إليه وقالت: «ظننت أنك كنت تحتفل برحيلي».

تخلل شعره بيد مرتجفة، شاعراً بعينيه جافتين من قلة النوم: «أبداً. كنت قلقاً للغاية وأوشكت على الاتصال بالشرطة. وقررت أن أذهب للبحث عنك إذا لم تعودي إلى البيت».

ارتجفت شفتا بايتون: «لا أدري ماذا عليّ أن أقول يا ماركو».

- ليس عليك أن تقولي أيّ شيء يا بايتون. تعالي فقط واجلسي بجانبي.

ومد لها يده.

نظرت إليه لحظة أخرى طويلة. حدّقت إلى يده ثم عادت تحدّق إلى وجهه. كانت ملامحها حزينة للغاية وقالت: «لا أدري إن كان بإمكاني أن أفعل هذا أيضاً».

أوما وأسقط ذراعه وشبك يديه بين ركبتيه.

أخذ يحدّق إلى السجادة الذهبية التي تحمل الرمز الملكي. لقد

أمضت هذه السجادة أكثر من مائة عام في هذا البيت، والله وحده يعلم كم بإمكانها أن تخبر من القصص.

أخذ يغالب دموعه، محاولاً أن يركز اهتمامه على السجادة. شعر بارتياح بالغ لوجودها في بيته وبالسرور لأنها آمنة. ولعل أفضل خبر هو أنها ليست مريضة وأن أمامها سنوات طويلة من الحياة تمضيها صحيحة الجسد، تحتضن فيها ابنتيها وتضعهما في سريرهما وتمنحهما كامل حنانها.

الحمد لله أنها بخير.

الحمد لله أنها عادت إلى البيت الآن، حتى ولو رفضت البقاء.

اغرورقت عيناه بالدموع فأخذ يمسحها بإبهامه: «كيف وصل تأثيرك فيّ إلى هذا الحد؟».

وخنقته مشاعر لم يستطع التحكم بها: «كيف . . . كيف جعلتني أشعر إلى هذا الحد. . . أرغب فيك إلى هذا الحد؟».

- بالطريقة نفسها التي جعلتني أشعر بها إلى هذا الحد، وأحب إلى هذا الحد.

راح يبكي، هو الذي لم يسبق له أن سمح لأحد أن يراه يبكي: «لا أعرف من أين أبدأ بالاعتذار. أنا آسف. آسف لأني فقدت أعصابي. . . وتصرفت بشكل أحمق. . . ولأني تلفظت بكلمات قاسية، ولأنني تركتك وخرجت. ولأني لم أصغِ إليك ولم أثق بك. . . ».

سارت بايتون إلى أسفل السلم ، ثم جلست إلى جانبه وقالت: «أظن أنّ الصورة ابتدأت تتضح لي. ما تريد أن تقوله هو أنك آسف لأنك تصرفت كرجل ذي كبرياء شعر بأنه خُدع».

- لكنك لم تخدعيني.

تنهدت بايتون ثم استندت إلى الخلف. نظرت إلى المدخل حيث الثريا الضخمة الزرقاء واللوحات المعلقة على الجدران التي لا تقدّر بثمن: «إنها بداية غريبة لشهر عسل، أليس كذلك؟».

شهق: «أتريدين أن تسمّي هذا شهر عسل؟».

- هذا ما أراه، فنحن متزوجان وأنا لن أغادر إلى أي مكان.

جمد ماركو مكانه لحظة، ثم مال إليها: «قولي هذا مرة أخرى».

التفتت إليه قليلاً فكاد مرفقها يصطدم بذقنه: «لن أغادر إلى أي مكان».

- أنت باقية إذن؟

ابتسمت وهي تلوي عنقها: «نعم. كان لنا عرس، أليس كذلك؟ ارتديت ثوباً صممه لي هذا المصمم الشهير، أليس كذلك؟ ثم أنا أعيش هنا، أليس كذلك؟».

- نعم، نعم... ونعم مرة أخرى.

وأمسك بوجهها بين راحتيه وقبلها: «أنت حبيبتي... وزوجتي».

- ولا تنسَ هذا!

كان قلبها محطماً بسبب كل ما حدث ومع ذلك رفضت أن تستسلم وأن تسهب في ذكر الحزن، فالحياة مليئة بالأحزان والأفراح، لكن الصابرين والمتمسكين بالأمل هم الفائزون في النهاية.

قال وهو يداعب خدها: «أخبريني أنك صفحت عني».

- لقد صفحت عنك.

- الحمد لله لأنك لم تهربي! الحمد لله أنك عدت إلى البيت!

اغرورقت عيناها بدموع لم تدعها تنهمر: «فكرت في ذلك. وكانت فكرة جذابة، أن أهرب وأدعك تقلق وتتألم».

والتوت شفتاها بشبه ابتسامة: «لكنني عدت فأدركت أنني لا أريد أن أكون في غير هذا المكان حتى ولو كنت بربرياً اليوم، لكنك ما زلت تستحق أن أمنحك فرصة أخرى. وهكذا عدت إلى هنا».

وأخذت تغالب دموعها وهي تأخذ نفساً عميقاً.

- الحمد لله.. لأن لديّ بشارة عظيمة لك.

استدارت إليه واتكأت على ركبتيها: «أحقاً؟».

- حقاً.

ومد يديه يجذبها إليه ثم ضمها إلى صدره: «وصلني تقرير من مستشفاك في سان فرانسيسكو بايتون. هل أنت مستعدة لسماع هذا؟».

وابتسم مداعباً فانهمرت الدموع من عينيها: «لا. ما هو؟».

- أنت غير مصابة بالسرطان!

لم تعرف ماإذا كان عليها أن تضحك أو تبكي: «أحقاً؟».

- كان الأمر كله غلطة فظيعة. أنت صحيحة الجسم تماماً وأنا الآن في غاية السعادة. هذا حدث غير عادي ويجب أن نحتفل به.

وصمت لحظة ثم أردف: «أتمنى لك، يا حبيبتي حياة طويلة هانئة».

فعانقته وردّت: «وستكون حياة طويلة هانئة، إذا ما أمضيتها معك».

www.rewity.com
mamoria5555